أصدقاء ناجي نعمان

Les amis de naji Naaman

los amigos de naji naaman

naji naaman's friends

د. فارس عيد

مجموعة

نظريَّة التـَّأثير النِّسبيَّة

الكتابُ الثـَّامن

مُخَيَّرون أم مُسَيَّرون

أو

مَفهوم الحرِّيَّة

من خلال

نظريَّة التـَّأثير النـِّسبيَّة

دار نعمان للثقافة

د. فارس عيد

من مواليد بلدة مزرعة الضَّهر (الشُّوف – لبنان) عامَ ١٩٤٠، متأهِّل، وله أربعة أولاد. حائزٌ إجازةً في العلوم الفيزيائيَّة من كلِّيَّة العلوم في الجامعة اللُّبنانيَّة (١٩٦٢)، فدكتوراه في الاختِصاص عَينه من جامعة السُّربُنّ بباريس (١٩٦٦). أستاذ مادَّة الفيزياء في الجامعة اللُّبنانيَّة بين عامَي ١٩٦٦ و٢٠٠٥، رَئِسَ قسمَ العلوم والرِّياضيَّات في كلِّيَّة التَّربية لأكثر من عشرة أعوام، ومثَّلَ الأساتذة في الكلِّيَّة المذكورة لأكثر من عشرة أعوام.

أوَّل مَن ألَّفَ وأصدرَ كتبَ فيزياء للصُّفوف الثَّانويَّة مُطابِقَة للبرامج الوطنيَّة (منذ ١٩٦٧). أطلقَ "نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة" في حقل الماورائيَّات وعلم النَّفس، وله، فيها، عدَّة مؤلَّفات: نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة؛ الإنسان في نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة؛ تفسير الأحلام العلميّ؛ الله الكمالُ المُطلَق؛ الحقيقة والخيال في السِّحر وقراءة الغَيب وتحضير الأرواح (دار نعمان للثَّقافة، ٢٠٠٩)؛ دورُ الأثَر والتَّذكُّر في نشوء الإنسان وفي تصرُّفاته الخاصَّة والعامَّة (دار نعمان للثَّقافة، ٢٠١٠).

Dr. Fares Eid

Born in Mazra'at Adh-Dhahr (Chouf – Lebanon) in 1940; married with four children. Ph. D. in Physics from La Sorbonne University (Paris, France, 1966); professor at the Lebanese University (1966-2005). With several books and papers.

Né à Mazra'at Adh-Dhahr (Chouf – Liban) en 1940; marié avec quatre enfants. Docteur en physique de l'Université de La Sorbonne (Paris, France, 1966); professeur à l'Université Libanaise (1966-2005). À son actif s'inscrivent des livres et des études.

لا للحرِّيَّة، نَعَم للعبوديَّة!

تهدفُ مجموعةُ كتب "نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة" للدّكتور فارس عيد إلى توعيَة النَّاس على بعض أسرار الوجود الَّتي لم يَجِدِ العلماءُ، بَعدُ، إيضاحًا لها. وفي هذا الصَّدَد، يقومُ الدُّكتور عيد، في كتابه الحاليِّ الجديد، بمعالجة مفهوم الحرِّيَّة، ويُقَدِّمُ الإجابةَ على السُّؤال التَّقليديّ: "أَمُسَيَّرون نحن، أم مخيَّرون؟"

فالحرِّيَّةُ المُطلَقَةُ، عند الدُّكتور عيد، هي الحالةُ الَّتي تَنتفي معها جميعُ الظُّروف الفاعِلَة، من مِثل الحاجات، والدَّوافع، والمستلزَمات، والأسباب، وغيرِها من الأمور الَّتي تُكَبِّلُ الإنسانَ، لا بل تُخضِعُه لمَشيئتها؛ وعندَ الظُّروف تُفْتَقَدُ الحرِّيَّة.

وفي البحث عن الحرِّيَّة، يُبَيِّنُ الدُّكتور عيد أنَّه لا يمكنُ أنْ يُجرَّدَ الإنسانُ من ماضيه، من الأحداث الَّتي مَرَّ بها، ومن الأمور الَّتي خضعَ لها، وطبعَتْه بتأثيرها من دون إرادته.

وردودُ فعلِ الإنسان، في عُرفه، هي ردودُ فعلٍ تتحكَّمُ فيها الظُّروفُ السَّابقةُ الَّتي خضعَ لها، وشاركَت في شَبكِ كيانه، كما الظُّروفُ الآنيَّةُ الَّتي ينوءُ بثقلها.

ألإنسانُ ليس حرًّا!

ألإنسانُ آلةٌ تتلاعبُ بها الظُّروف، ككلِّ شيءٍ آخرَ في الوجود.

ولأنَّ الحرِّيَّةَ المُطلقَةَ مستحيلةٌ، فلقد حدَّدَ عيد حرِّيَّاتٍ جزئيَّةً تُنْسَبُ كلُّ واحدةٍ منها إلى ظرفٍ مُعَيَّن. وهكذا فقد يكونُ الإنسانُ حرًّا بالنِّسبة إلى هذا الظَّرف، أو ذاك، وفاقدًا الحرِّيَّةَ بالنِّسبة إلى باقي الظُّروف.

وأمَّا بالنِّسبة إلى الخيار والتَّسيُّر، فقد بيَّنَ الدُّكتور عيد أنَّهما وَجهان لعملةٍ واحدة؛ فالخِيارُ، بحَسَبه، هو التَّسيُّر بعَينه.

وقد عزا عيد عدمَ الوصول سابقًا إلى مثل هذا الرَّأي، إلى عدم الاتِّفاق مُسبَقًا على تحديدٍ واضحٍ لمَفهومَي الخيار والتَّسيُّر، وإلى عدم الغَوْص في ظروفهما، وجَلاء ما يُحيطُ بهما من معانٍ تُساعدُ على جَلاء الصُّورة. وهذا ما تمَّ في هذا الكتاب.

وأمَّا لِمَ لا للحرِّيَّة، ونَعَم للعُبوديَّة، فلا بدَّ من قراءة الكتاب!

ناجي نعمان

ألإهداء

إلى كلِّ الَّذين يبحثون عن المعرفة لارتِواء ظَمَإِ،
ويَتوقون إلى العِلم والثَّقافة، والحرِّيَّة والكمال؛
إلى امرأتي وأولادي؛
إلى عائلتي الكبيرة؛
إلى لُبناني.

ألشُّكر

ألشُّكر، كلُّ الشُّكر، إلى الأستاذ الكبير **ناجي نعمان** الَّذي يعملُ، في صمتٍ، على إبراز دور لبنانَ الحَضاريّ، عبرَ أنشِطَته الثَّقافيَّة المجَّانيَّة المختلِفة الَّتي جمعَها مؤخَّرًا في "مؤسَّسة ناجي نعمان للثَّقافة بالمجَّان"، ولاسيَّما لجهة تشجيع نشر الأعمال الأدبيَّة على نطاقٍ عالميّ، وتأمينِ القراءة بالمجَّان للُّبنانيِّين، والعرب، وغيرهم.

ألمَدخَل

وضَعنا هذا الكتابَ بهدف تقديم إسهامٍ متواضعٍ لمعالجة مفهوم الحرِّيَّة، ومن ورائها الإجابة على السُّؤال التَّقليديّ: أَمُسَيَّرون نحن، أم مُخَيَّرون؟

وليكونَ العرضُ مشترَكًا بين الكاتِب والقارئ، كان لا بدَّ لنا أن نقومَ في الفصول الأولى بتحديد بعض المفاهيم والمفردات الَّتي سنَسوقُها في بحثنا كي لا تلتبسَ الأمورُ علينا.

ولسهولة مراجعة الموضوعات قسمَّنا الكتابَ إلى ثلاثة أبواب:

– وردَ في الباب الأوَّل مفهومُنا عن الوجود الَّذي لا يمكنُ فصلُه عن مفهوم التَّأثير.

– وجاء في الباب الثَّاني بحثٌ عن الإنسان وعن بعض أنشِطته العقليَّة، الواعيةِ منها والغريزيَّة.

– وأمَّا في الباب الثَّالث فتَمَّ تحديدُ الحرِّيَّة والخيار والتَّسيُّر وجرى البحثُ المُستفيضُ فيها.

المؤلِّف

ألمقدِّمة

يسألونَ أنْ ما دَخلُ الفيزياء (كون المؤلِّف حاملاً دكتوراه في علم الفيزياء) في مَفهوم الحرِّيَّة؟

نقول:

ليس على الفيلسوف فقط تحديد معنى الحرِّيَّة. فإنْ فَعَلَ فما يَعودُ يَفهمُ الحرِّيَّةَ سوى الفيلسوف.

وللعِلم الحقُّ في وُلوج ما يراه مناسبًا من أبواب. وهو ليس قادرًا على تحديد مَفهوم الحرِّيَّة فحَسب، بل، أيضًا، على تحديد جميع المفاهيم العامَّة. وإنْ فَعَلَ العِلمُ ذلك، فيأتي فِعلُه على نحوٍ أوضَحَ وأنجَعَ وأوجَز.

د. فارس عيد

البابُ الأوَّل
في الوُجود

إنَّ الكثيرَ من حالات سوء الفَهم بين النَّاس يَتأتَّى من عدم تحديد معاني المُفردات المُستَعمَلَة مُسبَقًا. فلكلٍّ واحدٍ منَّا مَفاهيمُه الخاصَّةُ الَّتي تكوَّنَت في ذهنه مع مرور الزَّمن، وفي ظروفٍ متنوِّعة؛ وهذا ما يسمحُ له أن يفَسِّرَ تلك المُفرَدات ويَفهمَها على طريقته الخاصَّة.

ولِعَدم الوقوع في حالة سوء الفهم هذه، قمنا في هذا الباب الأوَّل، بانتِقاء بعض المُفردات الَّتي سنسوقها في بحثنا، وحدَّدناها على نَحوٍ علميٍّ مُبَسَّط، وإنَّما لا يَخلو ترابطُ بعض المَفاهيم من مُلامَسة أفكارٍ فلسفيَّةٍ قد يُدخلُ بعضَ الإحباط في نَفس القارئ الكريم؛ لِذا نَرجو منه الصَّبرَ والتَّأنِّي.

وقد قسَّمنا موادَّ هذا الباب إلى فصولٍ خمسة، كالآتي:

الفصل الأوَّل: في المَوجودات، وفيه تمَّ تحديدُ الشَّيء والمُحيط والظُّروف والحقيقة.

الفصل الثَّاني: في التَّأثير والتَّأثُّر، وفيه تمَّ تحديدُ الوجود والتَّأثير المادِّيّ.

الفصل الثَّالث: في الشُّروط، وفيه تمَّ تحديدُ الظُّروف ومَفهومَي الوفرة والفرض.

الفصل الرَّابع: أنواع التَّأثيرات.

الفصل الخامس: الأثرُ والذَّاكرةُ والتَّذَكُّر، وفيه تمَّ بحثُ دور الأثَر والتَّذكُّر في التَّطوُّر والنُّموّ.

الفصلُ الأوَّل
في الـمَوجودات

١- الشَّيء

صنعتُ طاولةً خشبيَّة صغيرة، طليتُها باللَّون الأخضر. لمَّا انتهَيتُ منها، جلستُ أتأمَّلُها. أقول إنِّي تأثَّرت بها. ولأنِّي تأثَّرت بها وُجدَت بالنِّسبة إليّ، وإليَّ فقط، ولم توجَد لغَيري لأنِّي أنا الوحيد الَّذي رآها.

ثمَّ إنَّه لم تَكُن في وسعي رؤيةُ تلك الطَّاولة لو ما تكُنِ الغرفةُ مُضاءَة. فالضَّوءُ كانَ ضروريًّا لوُجود الطَّاولة النِّسبي. والضَّوءُ شيءٌ خارجَ الطَّاولة، وله تأثيرٌ عليها (لِجهة إضاءتها)؛ فهو، إذًا، شَرطٌ لوجودها.

بَدءًا، نقصدُ بالشَّيء كلَّ ما يؤثِّرُ ويتأثَّر. والشَّيء، إذ يؤثِّر، "يُوجَد". ووجودُه هذا قائمٌ على التَّأثير النِّسبيّ، أي بالنِّسبة إلى مَن، أو ما، تأثَّرَ به.

أ- الشَّيءُ مجموعةُ صفات:

ماذا رأيتُ، أنا، في الطَّاولة؟ رأيتُ لونَها، حجمَها، شكلَها، نوعَها...؛ إنَّ الشَّيءَ لا يظهرُ للإنسان إلا بتأثيراته وبتأثُّراته. وهذه التَّأثيرات والتَّأثُّرات تُعرَفُ بما يُسمَّى الصِّفات أو الخاصِّيَّات؛ وبذلك، يُصبحُ الشَّيءُ مجموعةَ صفاتٍ أو خاصِّيَّات.

ولكنَّ مجموعة صفات مُنتقاة من هنا وهناك لا تحُدِّد شيئًا كالَّذي يفهمُه الإنسان؛ وعليه، فقد قمنا، من ضمن نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة، بتحديد الشَّيء على الوجه الآتي:

"الشَّيء هو مجموعة خاصِّيَّات وصفات مُرتبطة ومُستمرَّة بارتباطها معًا من ضمن شروط معيَّنة. وهو يُشكِّل وَحدة، أي كُلاًّ تجتمعُ فيه جميع الخاصِّيَّات والصِّفات؛ بمعنى أنَّه إذا فُقِدَت خاصِّيَّةٌ أو صفةٌ من خاصِّيَّات شيءٍ ما فُقِد ذلك الشَّيء".

وشروط شيء ما هي كلُّ الأشياء الأخرى الَّتي وُجبَ أن توجَدَ بالنِّسبة إلى ذلك الشَّيء (أن تؤثِّر فيه) كي يُوجَدَ بالنِّسبة إلينا أو بالنِّسبة إلى أيِّ شيء آخر.

ب- الشَّيء مجموعةُ أجزاء:

نلاحظُ أنَّ بعض الصِّفات والخاصِّيَّات الَّتي تميِّزُ شيئًا ما تترابطُ وتؤلِّفُ مجموعةً مستمرَّة. والمجموعة المستمرَّة هذه هي، في حدِّ ذاتها، شيءٌ كما حُدِّدَ سابقًا، وهذا الشَّيء بالنِّسبة إلى الكلِّ يُسمَّى جزءًا. بذلك يصبح الشَّيء مجموعةَ أجزاء مُرتَبِطَة.

كما نلاحظُ أنَّ كلَّ جزء هو مجموعة أجزاء صغرى، والأجزاء الصُّغرى مجموعات من أجزاء أصغر. وقد نذهب بذلك إلى ما لا نهاية له في الصِّغَر، أي إلى الصِّغَر اللاَّمُتَناهي.

ج- الشَّيءُ جزءٌ من كُلّ:

كما أنَّ مجموعة أجزاء تؤلِّفُ شيئًا، كذلك مجموعة أشياء مُرتبطة تؤلِّفُ شيئًا كُلاًّ تُشكِّل، هي، أجزاءَه. وهكذا، يُصبح كلُّ شيء جزءًا من كُلّ؛ والكُلُّ جزءًا من كُلٍّ أكبر، ثمَّ أكبر، وأكبر؛ وقد نذهب إلى ما لا نهايةَ له في الكِبْر، أي إلى الكِبْر اللاَّمُتَناهي.

ولهذا، وجبَ دائمًا تحديد الشَّيء الَّذي يُجرى البحثُ فيه، وذلك بتحديد أجزائه وصفاته على قَدر المُستَطاع.

٢- مُحيط الشَّيء

إنَّ مُحيط شيء هو اسمٌ يُطلَق على الخاصِّيَّات والأشياء الَّتي تؤثِّر في ذلك الشَّيء، إنْ مباشرةً أو غير مباشرة. ويُعرَفُ المحيط عند تحديد الشَّيء المذكور، فينتسبُ إليه. وعليه، فلكلِّ شيء مُحيطُه الخاصّ.

و"المحيط المباشر أو القريب" يُطلَق على الأشياء الَّتي تُجاور الشَّيء المَعني، أي الَّتي تؤثِّر فيه مباشرة؛ وأمَّا "المحيط غير المباشر أو البعيد" فيُطلَق على الأشياء الَّتي تبعد عن الشَّيء، أي الَّتي تؤثِّر فيه على نحوٍ غير مباشر، من طريق أشياء المحيط القريب.

فالشَّيء الَّذي أراه، ما كنت لأراهُ لو لم يكُن هناك ضوء الغرفة الَّذي يُضيئُه: فالغرفة هي من محيط الشَّيء القريب والَّتي أثَّرت بضوئها فيه. ولكنَّ الغرفة لم تكُن لِتُضيءَ الشَّيءَ لولا وجودُ الشَّمس. وبهذا، تُصبحُ الشَّمس أيضًا من محيط الشَّيء، ولكن من محيطه البعيد. وقد تصبحُ من محيطه القريب إذا ما كان الشَّيء في الخارج، ويَسطعُ نور الشَّمس عليه.

٣- ظروفُ الشَّيء

ظروف الشَّيء هي بعض الشُّروط أو كلُّها الَّتي تؤثِّر فيه على نحوٍ مباشر أو غير مباشر. والشُّروط، كونها تأثيرات، هي، بالتَّالي، صفات؛ وبصورة أوضح، هي بعض صفات المحيط وصفات الشَّيء نفسه. وبهذا، تُصبحُ الظُّروف من أشياء المحيط مع الشَّيء عَينه. ولكن، في حين يُنظَر إلى المحيط نظرة مباشرة، يُنظَر إلى الظُّروف نظرة غير مباشرة عبر الشيء المتأثِّر.

ففي المثل الأعلى، نقول إنَّ ضوء الغرفة هو ظرفٌ من ظروف الشَّيء، أي إنَّ الشَّيء يتأثَّر بذلك الضَّوء. والضَّوء هو جزء من محيط الشَّيء؛ ولكن، بينما أنا أتأثَّر بضوء المحيط مباشرة، أرى تأثُّر الشَّيء المَعنيِّ بالضَّوء، فيوجد الضَّوء ليس لي مباشرة، بل من خلال تأثُّر الشَّيء.

فالمحيط يتطلَّب وجودي أنا فقط كناظِر، بينما الظُّروف تتطلَّب شيئَين كي تُحدَّدَ: الشَّيء المتأثِّر، والنَّاظِر.

ولا لزوم للقول إنَّ الظُّروف كما المحيط تختلفُ باختِلاف تأثُّر النَّاظِر؛ وعليه، فهي تُنسَب، في ما تُنسب إليه، إلى الشَّيء وإلى النَّاظِر.
يبقى أن نُشيرَ إلى أنَّ الشَّرطَ هو الخاصِّيَّةُ الَّتي وُجِبَ وجودُها، فيما الظَّرفُ هو الخاصِّيَّةُ الَّتي وُجدَت؛ وهنا يكمنُ الفرقُ بين الشَّرط والظَّرف.

٤- تغييرات الشَّيء: التَّغييرات الكمِّيَّة والتَّغييرات النَّوعيَّة

الصِّفة تتغيَّر، ويتغيَّر معها الجزء والشَّيء الكُلّ.

أ- تغييرات الشَّيء بالنِّسبة إلى صفاته: يتغيَّرُ الشَّيء بالنِّسبة إلى صفةٍ فيه بانتقال تلك الصِّفة من قوَّة إلى قوَّة. فيُقال عندئذٍ إنَّ الشَّيء انتقل من قوَّة إلى قوَّة بالنِّسبة إلى تلك الصِّفة. وهذا تغييرٌ بالكمِّيَّة، أو تغييرٌ كمِّيّ.
وقد يتغيَّر الشَّيء كذلك بزوال صفة قديمة أو أكثر، أو بظهور صفة جديدة. فيُقال عندئذٍ إنَّ الشَّيء فَقَدَ صفة أو اكتسب صفة، أو إنَّ الشَّيء زال أو ظهر بالنِّسبة إلى تلك الصفة، وهذا تغييرٌ في النَّوعيَّة، أو تغييرٌ نوعيّ.
فالحائط الأحمر قد يتغيَّر لجهة لونه، فيصبح أقلَّ أو أكثرَ احمِرارًا (تغيير كمِّيّ)، أو يصبح أبيضَ (تغيير نوعيّ).

ب- تغييرات الشَّيء بالنِّسبة إلى أجزائه: يتغيَّر الشَّيء أيضًا بالنِّسبة إلى أجزائه، وذلك بتغيير جزء أو عدَّة أجزاء بالنِّسبة إلى صفاتها، أو بتغيير شروط التَّرابط بين تلك الأجزاء، كأنْ يحدثَ انفِصالٌ أو تفكُّكٌ أو نموٌّ أو زوال.

٥- مجموعة الأشياء:

مجموعة الأشياء هي عدَّة أشياء مرتبطةٌ جميعُها بشرط واحد (أو بعدَّة شروط)، يُقال

له (أو لها) الرَّابط أو الجامِع المُشتَرَك. فالأشياء الموجودة على الطَّاولة هي مجموعة تشترك بوجودها على الطَّاولة.

وكلُّ شيء من المجموعة يُقال له فرد، أو وَحدة.

والمجموعة بحدِّ ذاتها شيءٌ إذا كانت وحداتُها مرتبطةً ومستمرَّةً في ارتباطاتها، وتعرف عندئذٍ المجموعةُ ككُلّ. عندها، يمكننا تحديد صفات كلِّيَّة، وأخرى فرديَّة.

وكلُّ فئة من وحدات مجموعة يُمكن أن تؤلِّفَ مجموعة صغرى على أن يكون هناك رابطٌ مشتركٌ بينها، وبالتَّالي، يُمكن أن تُقسمَ مجموعةٌ كبرى ما إلى مجموعاتٍ صغرى.

والمجموعات تُقارَنُ كالأشياء بصفاتها أو بعلائقها أو بعدد وَحداتها.

والمجموعة تتغيَّر، ويكون تغيُّرُها كمِّيًّا أو نوعيًّا بتغيُّر وحداتها أو بارتباطات تلك الوحدات. ويُقال إنَّ المجموعة تتكاثر عندما يأخذ عددُ وحداتها بالازدياد كمِّيًّا.

وأصل المجموعة هو الوحدات الَّتي ظهرت أوَّلاً، أو الوحدات الَّتي لم تتغيَّر على نحوٍ كبير.

وتبدأ المجموعة، بالنِّسبة إلى صفةٍ ما، عندما تظهرُ تلك الصِّفة فيها، وتنتهي عندما تزولُ الصِّفة عنها. ونحدِّد كذلك بدايةَ المجموعة ونهايتَها، أو ولادتَها وزوالَها، بالنِّسبة إلى وَحدة منها.

٦- فئة الأشياء:

فئة الأشياء هي عددٌ من أشياءَ مجموعةٌ تشتركُ في صفةٍ أو في صفاتٍ نوعيَّةٍ أو ذاتيَّةٍ أو متجانسةٍ تُسَمَّى الميزة أو الجوهر. والمجموعة الَّتي تُصطَفى منها تلك الفئة تُدعى المجموعة الأمّ، والصِّفات المشتركة مع الرَّابط المشترك للمجموعة الأمّ تُسَمَّى أساس الفئة.

فإذا أخذنا الأشياء الموجودة في منزلٍ ما، فإنَّ هذه الأشياء تؤلِّف مجموعةً تشترك بوجودها في ذلك المنزل. وإذا أخذنا من هذه المجموعة الأمّ الأشياء الَّتي تُستعمل فقط لتحملَ على سطحها بعض الأشياء الأخرى (ميزة الطَّاولات)، فهذه الأشياء تؤلِّف فئة (فئة الطَّاولات). وهي تشترك بعدَّة صفات من بينها، بخاصَّة، كونها مُنتقاة من المجموعة الأمّ، وكونها تُستعمل لتحملَ أشياءَ أخرى، وهاتان الصِّفتان تؤلِّفان أساس الفئة، وقد نُضيف إليها صفاتٍ أخرى لتحديد الفئة على نحوٍ أدَقّ، كتحديد عدد القوائم أو نوع المادَّة التي صُنِعَت منها.

والفئات تُقارَنُ بصفاتها المشتَرَكة، وبعدد وَحداتها.
وهناك فئات صغرى وفئات كبرى وفئات أكثر شمولاً.
وفي الفئة تتدرَّج صفة مشتَرَكة بين حدَّين، أقصى وأدنى؛ أي أنَّه، بالنِّسبة إلى صفة ما، تنفردُ في الفئة وحدتان:
إحداهما ذات الصفة الأضعف، يُقال لها وَحدة الحدِّ الأدنى، والأخرى ذات الصِّفة الأكبر، يُقال لها وَحدة الحدِّ الأقصى.
ويأتي قياس هذه الصِّفة في سائر الوَحدات الأخرى بين هذَين الحدَّين، ويُقال إنَّ الصِّفة "صفة متوسِّطة" أو ذات قياس وسطيّ أو معدَّل إذا كانت صفةٌ ذاتيَّةٌ للعدد الأكبر من الوحدات.
والشَّيء يُقارن من ضمن فئته بالنِّسبة إلى الوَحدة ذات القياس المعدَّل. فثمَّة الشَّيء النَّاقص والزَّائد، وثمَّة الشَّيء القويّ والضَّعيف.
والفئة ليست شيئًا بمعنى الشَّيء، إذ ينقص وَحداتها الارتباطُ والاستمرار، ولكنَّها تتغيَّر، وتغيُّرُها يتعلَّق بعدد وَحداتها وبروابط هذه الوَحدات، كما تتغيَّرُ الفئة بصفاتها المتوسِّطة.

والأصول الطَّبيعيَّة لفئة ما هي مُجمل الصِّفات والعلائق المشتَرَكة الَّتي تميِّز وَحداتها، والأصول العاديَّة هي الصِّفات والعلائق الكثيرة الظُّهور، والأصول غير العاديَّة هي بقيَّة الصِّفات والعلائق.

فمن الأصول العاديَّة في فئة الإنسان مثلاً أن يمشيَ الإنسان على رجلَيه. فإن مشى على يدَيه يكون ذلك، على الرَّغم من كونه طبيعيًّا، حدثًا غيرَ عاديّ. وتُسَمَّى العلائق غير العاديَّة في بعض الأحيان شواذًا.

٧- التَّعقيد:

التَّعقيدُ مُصطَلَحٌ يتعلَّق بكثرة الارتباط. وهو يرتكز على عناصر القوَّة والكثرة والكِبْر والاختلاف والتَّنوُّع وشدَّة التَّأثير والسُّرعة.

فبين مجموعتَين من الوَحدات الذَّاتيَّة، تكون المجموعة الأكثر تعقيدًا هي تلك الَّتي يكون عددُ وَحداتها أكبر.

وبين مجموعتَين من الوَحدات المتجانسة، تكون المجموعة الأكثر تعقيدًا هي تلك الَّتي يكون بين وَحداتها اختلافٌ أشدُّ وأقوى.

ويُنسب التَّعقيد إلى الأشياء الَّتي يُقارَنُ بعضُها بالبعض الآخَر، وإلى الباحث الَّذي يختبرُها. فقد يكون مثلاً شيءٌ ما معقَّدًا وبسيطًا في آنٍ واحد: معقَّدًا بالنِّسبة إلى شيء أقلّ منه تعقيدًا، وبسيطًا بالنِّسبة إلى أشياء أخرى أشدُّ منه تعقيدًا. وعليه، فالتَّعقيد ليس بخاصِّيَّة مُقتَصَرَة على شيء واحد، ولكنَّه يقومُ ويبرزُ عند المقارنة بين عدَّة أشياء.

والتَّعقيد والبساطة يتدرَّجان ككلِّ الصِّفات على سلَّمٍ وجوديّ، ولكن في اتِّجاهَين معاكسَين، أي أنَّ السُّلَّم يبدأ بمنتهى البساطة في أحد طرفَيه، وينتهي بالتَّعقيد الأقصى في الطَّرف الآخر.

٨- الواقع:

الواقعُ هو حالةُ شيءٍ (أو مجموعة أشياء) تمَّ الاتِّفاقُ على تحديدٍ واحدٍ لها من كَمٍّ من النَّاس، أو الَّتي قد يتَّفقُ عليها هذا الكَمُّ من النَّاس.

والواقعُ يكونُ نسبيًّا، أي أنَّه يتعلَّق بالشَّيء (أو المجموعة) وبذلك الكَمّ، كما يتعلَّقُ بالوقت الَّذي حُدِّدَ به. ويكونُ مُطلَقًا إذا تمَّ الاتِّفاقُ عليه من كلِّ النَّاس وفي كلِّ الأوقات.

فالشَّمسُ واقعٌ مُطلَق. فكلُّ النَّاس تُقرُّ وتعترف، اليومَ كما في الأمس، أنَّ هناك جرمًا سماويًّا مُشِعًّا يُرسلُ نورَه وحرارتَه إلى الأرض فيُدفئها.

٩- الحقيقة

الحقيقةُ هي كلُّ واقعٍ مُطلَقٍ تمَّ الاتِّفاقُ عليه. والحقيقةُ تُنعَتُ بالجُزئيَّة إذا تعلَّقت ببعض خاصيَّات شيءٍ أو مجموعةٍ أو حالة، وبالكامِلَة إذا تعلَّقت بكلِّ خاصيَّات الشَّيء أو المجموعة أو الحالة.

فالدّيناصور حيوانٌ حقيقيٌّ لأنَّه تركَ خاصيَّةً مُطلَقَة (عظامه). ولكنَّ الكثير من خاصيَّاته الباقية تبقى فرضيَّةً كونها لم تتركْ أثرًا باقيًا. وأمَّا التِّنِّينُ فحيوانٌ فَرَضيٌّ غيرُ حقيقيٍّ لأنَّه لم يتركْ أيَّ أثرٍ مُطلَق.

وعليه، سنحدِّدُ الحقيقةَ، على نحوٍ عامّ، ككلِّ وجودٍ سابقٍ تركَ أثرًا باقيًا مُطلَقًا، فيما كلُّ وجودٍ حاضرٍ مُطلَق، وكلُّ ما مضى ولم يتركْ أثرًا، أو كلُّ وجودٍ حاضرٍ غير مُطلَقٍ يدخلُ في الفَرَضيَّة (غير حقيقيّ).

ونُشيرُ إلى أنَّ الكلمة لا تؤلِّف أثرًا كونها لا تخصُّ الشَّيء. فقد يكتب أحدُهم عن شخصيَّة خياليَّة، أو إخباريَّةً غير صحيحة عن إحدى الشَّخصيَّات المعروفة؛ بيدَ أنَّ هذا لا يعني أنَّ تلك الشَّخصيَّة الخيـــاليَّة أو تلك الإخباريَّة الكاذبة هي حقيقـــة، على

الرَّغم من أنَّ الكلمة بحدِّ ذاتها هي حقيقة مُطلَقَة، ولكنَّها، كخاصِّيَّة، تتعلَّقُ بصاحبها كونها تؤلِّف أثرًا له وليس لمَن تكلَّمَ عليه.

١٠- المادَّة

المادَّةُ هي كلُّ ما يمكنُ أن يؤثِّر (في) ويتأثَّر (بـــ)، وأن يُوجدَ كشيءٍ مُستقلّ. فالمادَّةُ هي كنهُ الأشياء: الكرسيُّ مادَّةٌ لأنَّها تتأثَّر وتؤثِّر وتوجَد كشيءٍ مُستقلّ؛ وأمَّا النُّورُ فبالرَّغم من أنَّه يتأثَّر ويؤثِّر، فهو لا يوجَد كشيءٍ مُستقلّ. النُّورُ تأثيرٌ صادرٌ عن شيءٍ مادِّيّ.

والصَّوتُ والتَّموُّجاتُ والحلم والخيال ليست موادَّ كذلك، إنَّما هي تأثيراتٌ صادرةٌ عن مادَّة: فالصَّوت نتيجة تذبذبات الهواء المادِّيّ، والأحلام نتيجة تأثُّر الدِّماغ المادِّيّ، وتلك هي حالُ الخيال.

١١- التَّأثيرُ المادِّيّ

التَّأثيرُ كعمليَّةٍ هو تغييرُ شيءٍ مادِّيٍّ من قِبَل شيءٍ مادِّيٍّ آخَر. الأوَّلُ يُقالُ له المؤثِّر، والثَّاني يُقالُ له المتأثِّر. فَكُرَةٌ متحرِّكةٌ تُطلقُ كرةً ثابتةً إذا ارتطمَت بها؛ ونقولُ عندها إنَّ الكرةَ المتحرِّكةَ أثَّرَت في الثَّابتة أو إنَّها غيَّرَتها من كرةٍ ثابتةٍ إلى كرةٍ متحرِّكة. والمصباحُ يُضيءُ الغرفة؛ أي أنَّه يؤثِّرُ في الغرفة فيغيِّرُها من غرفة مُظلمة إلى غرفة مُضاءة. والفنَّانُ الَّذي برع في ناحيةٍ معيَّنةٍ من فنِّه يؤثِّرُ في فنَّانٍ ناشئ، أي أنَّه يغيِّرُه من فنَّانٍ عاديٍّ إلى فنَّانٍ قد يبرعُ هو أيضًا في تلك النَّاحية.

ويُقالُ عن التَّأثير أيضًا إنَّه الخاصِّيَّة المنتقلة من الشَّيء المؤثِّر نحو الشَّيء المتأثِّر.

ففي الأمثلة السَّابقة تصبحُ الحركةُ التَّأثيرَ المنتقلَ من الكرة المتحرِّكة نحو الكرة الثَّابتة، والضَّوءُ التَّأثيرَ المنتقلَ من المصباح نحو أرجاء الغرفة، والفنُّ الَّذي برع فيه الفنَّانُ الأوَّلُ التَّأثيرَ المنتقلَ منه نحو الفنَّان النَّاشئ.

١٢- الوجود

نقولُ إنَّ شيئًا موجــودٌ بالنِّسبة إلى شيءٍ آخَرَ إذا أثَّر فيه، وإنَّه غيرُ موجودٍ بالنِّسبة إلى شيءٍ ثانٍ إذا لم يؤثِّر فيه. ويُصبح الوجودُ بذلك نسبيًّا، أي يُنسَبُ إلى الشَّيء الَّذي أثَّر، وإلى الشَّيء الَّذي تأثَّر.

ويكونُ الوجودُ مُطلَقًا، وبالتَّالي حقيقيًّا، إذا كان مَنسوبًا إلى كلِّ الأشياء أو إذا كان في الإمكان أن يُنسَبَ إلى كلِّ الأشياء.

فالمواطنُ الكونغوليُّ يوجدُ بالنِّسبة إلى أيِّ مواطنٍ كونغوليٍّ آخَرَ عرفَه. وأمَّا بالنِّسبة إليَّ فهو غير موجودٍ لأنِّي لا أعرفُه ولا أشعرُ بوجوده. فوجودُه هو وجودٌ نسبيٌّ فَرَضيٌّ وغيرُ حقيقيّ. ولكن، إذا أمكنَ كلَّ النَّاس التَّعرُّفُ عليه مباشرةً أو غير مباشرةٍ عبر التِّلفاز مثلاً لأصبحَ وجودُه مُطلَقًا وحقيقيًّا.

١٣- هل هناك تأثيرٌ لامادِّيّ؟

إنَّ التَّأثير الَّذي ذكرنا سابقًا تأثيرٌ يُصيبُ المادَّةَ كمصدرٍ وكالتِقاط. وهو يتعلَّقُ بها، أي بالمادَّة، ويؤلِّف، بالتَّالي، ميزةً لها. ولذا، يُمكننا أن نصفَه بالتَّأثير المادِّيّ.

ولكن، هل هناك تأثيرٌ لامادِّيّ؟

نحن البشر لا نعرفُ تأثيراتٍ سوى التَّأثيراتِ المادِّيَّة، أي الصَّادرةِ عن المادَّة. وقد تكونُ هناك تأثيراتٌ لامادِّيَّةٌ مثل تأثيرات عَدَميَّة أو روحانيَّة. ولكنَّ هذه التَّأثيرات لا

تُصيبُنا، ولا تؤثِّرُ فينا، ولا يمكنُ أن توجدَ بالنِّسبة إلينا، وبالتَّالي، لا يمكنُ التَّعاملُ معها أو معرفتها. ولو كانتِ الأمورُ على العكس من ذلك، لكانتِ العلاقةُ بين المادَّة واللاَّمادَّة قد توضَّحت وأصبحت خبزًا يوميًّا، ولكانَ وجودُها أصبحَ حقيقيًّا.

فالملاكُ الَّذي تتكلَّمُ عليه الأديانُ السَّماويَّةُ لا وجودَ مُطلَقًا (مادِّيًّا) له. لذا، فهو يدخلُ في الفَرَضيَّة، وقد يُقالُ إنَّ البعضَ تأثَّرَ به، وقد يكونُ هذا صحيحًا، ولكنَّه يبقى فَرَضيًّا، إذ إنَّ هذا البعضَ لا يُمَثِّلُ الكلَّ المَطلوبَ لإعطائه صفةَ الحقيقة.

الفصلُ الثّاني
في التّأثير والتّأثّر

١- التـَّأثير والتـَّأثـُّر: مصدرُ التـَّأثير ولاقِطُ التـَّأثير

أنْ يتأثَّر الشَّيء يعني أن يكتسب صفة جديدة أو أن يتغيَّر بصفة موجودة. وعليه، فكلُّ تأثُّر تغيير، وكلُّ تغيير تأثُّر.

وأنْ يؤثِّر شيء، انطلاقًا من خاصِّيَّة فيه، في شيء آخر، هو أن يغيِّر، عن طريق تلك الخاصِّيَّة، صفةً في الشَّيء الآخر، وذلك بإعطائه من تلك الخاصِّيَّة.

ويصبح التَّأثير كعمليَّة، تغييرُ صفةٍ في الشَّيء المتأثِّر بإعطائه صفةَ الشَّيء المؤثِّر، كما يُقال عنه القدرة على تغيير الشَّيء المتأثِّر بصفةٍ من الشَّيء المؤثِّر، فيتغيَّر الشَّيء المتأثِّر باتِّجاه الشَّيء المؤثِّر.

فقطعة معدنيَّة ساخنة وُضعت في الماء مثلاً تُعطي الماءَ سخونتَها. فالتَّأثير، هنا، كان إعطاء الماء الباردة نسبيًّا سخونة (صفة مكتَسَبة)، هي من صفات القطعة المعدنيَّة.

وكذلك تصطدم كرة متحرِّكة بكرة أخرى متوقِّفة، فتُعطي الكرةُ الأولى الكرةَ الثَّانيةَ حركتَها، وبالاتِّجاه عَينه (تأثير).

والعالم في التاريخ يُلَقِّن (تأثير) مَن هو دونه معرفةً عِلمًا في تلك المادَّة، وليس في أيِّ مادَّة أخرى، ما لم يكُن ضَليعًا فيها.

وأمَّا نتيجة التَّأثير، وهي التَّغيير الحاصل في الشَّيء المتأثِّر والظَّاهر بصفة، فتُسَمَّى التَّأثُّر، كما يُقال لها فعل التَّأثير. والتَّأثير شرطٌ أو سبب. وأمَّا التَّأثُّر فنتيجة أو صفة، وذلك بالنِّسبة إلى مَن يُلاحظ عمليَّةَ التَّأثير.

وقد يُقال عن التَّأثير الخاصِّيَّة الَّتي انتقلت من الشَّيء المؤثِّر إلى الشَّيء المتأثِّر. عند ذلك يُسَمَّى الشَّيء المؤثِّر مصدرَ التَّأثير، والشَّيء المتأثِّر لاقِطَ التَّأثير. ففي المِثال الأوَّل (السَّابق) تُصبح السُّخونةُ التَّأثيرَ المَعنيّ، والقطعة المعدنيَّةُ السَّاخنةُ مصدرَ السُّخونة، والماءُ لاقِطَها. وفي المثال الثَّاني، تكون الحركةُ التَّأثيرَ المَعنيّ، والكرةُ المتحرِّكةُ مصدرَ الحركة، والكرةُ المتوقِّفةُ لاقِطَ الحركة.

وإثارة شيء بالنِّسبة إلى صفة فيه هو التَّأثير عليه بطريقة تجعلُه يتأثَّر (أي يتغيَّر) بتلك الصِّفة.

٢- التَّأثير المُقابل

عندما يؤثِّر شيءٌ أوَّلُ في شيءٍ ثانٍ، يؤثِّر الشَّيء الثَّاني، على طريقته الخاصَّة، وفي الوقت عَينه، في الشَّيء الأوَّل. ففي مثال الكرات، إنَّ الكرة المتوقِّفة تؤثِّر في الكرة المتحرِّكة في الوقت عَينه الَّذي تتأثَّر بها، وذلك بإعطائها صفتَها الخاصَّة، ألا وهي خاصِّيَّة الوقوف، أي أنَّ الكرة المتوقِّفة تعمل على إيقاف الكرة المتحرِّكة. كما أنَّ الماء الباردةَ تعمل على تبريد القطعة المعدنيَّة بإعطائها شيئًا من برودتها.

والتَّأثير الصَّادر عن الشَّيء المتأثِّر في الوقت عَينه الَّذي يلتقط فيه تأثير الشَّيء المؤثِّر يُقال له التَّأثير المقابل.

ولكلِّ تأثير، مهما كان نوعُه، تأثيرٌ مقابلٌ في الوقت عَينه.

٣- ردُّ الفِعل

بعد أن يتأثَّر الشَّيء (أي بعد أن يتلقَّى التَّأثير)، يصبح التَّأثُّر الَّذي أصابه شرطًا جديدًا قد يغيِّر صفاتٍ فيه، ممَّا يُعطيه القــدرة على تغيير أشياء أخرى، حتَّى الشَّيء الَّذي

أثَّر فيه. وعمليَّات التَّغيير هذه تصبُّ في خانة التَّأثيرات؛ ولتمييزها عنها، دُعيَت بِردَّات الفِعل.

فردَّة الفِعل، هي أيضًا، تأثير؛ وتجري، كما رأينا، على مرحلتَين: إحداها داخليَّة، في الشَّيء عَينه، والأخرى خارجيَّة، على أشياء أخرى.

فالسُّخونة قد تؤدِّي إلى تغيير صفة السُّيولة للماء، فتحوِّلُها إلى بخار، وهذا التَّغيير النَّوعيُّ هو ردَّةُ فِعل داخليَّة. وأمَّا ردَّة الفِعل الخارجيَّة فهي مُطلق تأثير للبخار كالسُّخونة، أو الضَّغط العالي.

وحركة الكرة الأولى أدَّت إلى تغيير صفة اللاَّحركة في الكرة الثَّانية بتحويلها كرةً متحرِّكةً باتِّجاهٍ خاصّ، وهذه هي ردَّة الفِعل الدَّاخليَّة. وأمَّا ردَّة الفِعل الخارجيَّة، فهي مطلق تأثير لتلك الكرة المتحرِّكة الجديدة، كإطلاق كرة ساكنة أخرى أو كسر زجاج ما.

٤- نسبيَّة التـَّأثير

عمليَّة التَّأثير تتعلَّق بالمُتَأثِّر، وبالمؤثِّر، وبالشُّروط الموجودة عند التَّأثير. بمعنى أنَّ نوعيَّة التَّأثير وكمِّيَّته بين شيء وآخر تختلفان باختلاف هذه الأشياء، وباختلاف شروطها. فللشَّيء المؤثِّر عَينِه مثلاً تأثيراتٌ مختلِفة (كمًّا ونوعًا) على أشياء مختلِفة، وله، أيضًا، تأثيرات مختلِفة على أشياء ذاتيَّة موجودة في ظروف مختلِفة.

كما أنَّ الشَّيء عَينَه يتأثَّر بتأثيرات معيَّنة بشيء أوَّل، ويتأثَّر بنوعيَّة أخرى بشيء ثانٍ.

٥- إنتشار التـَّأثير - المواجهة

تُظهر أشياء مختلِفة ردودَ فِعل مُتباينـــة عندما تتعرَّض للتَّأثيـــر عَينه، وذلك بحَسَب

ظروفها. فالبعض منها تكون تأثيراتُه قويَّة، وردودُ فِعله قويَّة، ويُسَمَّى ناقِلَ التَّأثير؛ والبعضُ الآخرُ تكون تأثُّراتُه ضعيفةً جدًّا، أو مُنعَدِمَة، ويُسَمَّى غيرَ ناقِلٍ لذلك التَّأثير. فالتَّيَّار الكهربائيُّ (تأثير) ينتقلُ في المعادن (ناقِلة ذلك التَّأثير)، ولا يمرُّ في الأخشاب (غير ناقِلة للتَّأثير)؛ وحركة كرة تنتقل إلى كرة أخرى (ناقِلة لذلك التَّأثير)، ولا تنتقل إلى جدار (غير ناقِل للتَّأثير).

وإذا أخذنا سلسلةً من الأشياء المتجاورة والنَّاقلة تأثيرًا ما، فإنَّ هذا التَّأثير ينتقل من شيء إلى آخر؛ إذ عندما يتأثَّر شيء من السِّلسة، يكون ردُّ فِعله تأثير الشَّيء المرتبط به، وهذا الَّذي يليه؛ وهكذا دوالَيك. ويُقال لهذا الانتقال انتشارَ التَّأثير، وللمجموعة أو السِّلسلة، طريقَ الانتشار. ولكن، إن وُجدت في السِّلسلة خاصِّيَّةٌ غيرُ ناقِلة التَّأثيرَ، فإنَّها توقف الانتشار، وتكون مانعًا له.

ونقول إنَّ شيئًا هو في مواجهة شيء آخر بالنِّسبة إلى تأثير ما، إذا فصلَته عن الشَّيء الآخر أشياءُ ناقلةٌ لذلك التَّأثير. ونقول إنَّ شيئًا هو مَحجوب عن شيء آخر بالنِّسبة إلى تأثير ما، إذا فصلته عن الشَّيء الآخر أشياءُ تضمَّنت مانعًا لانتشار ذلك التَّأثير. وفي هذه الحال لا يحصُلُ التَّأثير في الشَّيء الآخر.

وواسطة التَّأثير هي الشَّيء الَّذي ينقل (أو سلسلة الأشياء الَّتي تنقل) التَّأثير من شيء أوَّلَ إلى شيء ثانٍ.

٦- التَّأثير والاختِلاف

إنَّ التَّغيير الحاصل مِن جَرَى تأثيرٍ ما ليس سوى عمليَّة استِبدالٍ أو إرغام، يُستبدل فيه الشَّيء المتأثِّر خاصِّيَّةً فيه بخاصِّيَّة من الشَّيء المؤثِّر، أو يُرغم فيه الشَّيء المتأثِّر على أخذ خاصِّيَّة الشَّيء المؤثِّر. ولحصول هذه العمليَّات وجبَ الاختِلاف. الاختِلاف بين المستبدِل والمستبدَل، وبين المُــرغِم والمُــرغَم. ففي الأمثلة السَّابقة

تكون القطعة المعدنيَّة قد أرغمتِ الماء على أخذ سخونتها أو أن تكون الماء قد استبدلَت خاصيِّيَّة البرودة فيها بخاصيِّيَّة السُّخونة الَّتي وصلتها من القطعة المعدنيَّة. وقِس على ذلك مثال الكرة المتحرِّكة والكرة السَّاكنة.

وعليه، لحصول التَّغيير والتَّأثير، وجبَ الاختلاف بين الأشياء المؤثِّرة والمتأثِّرة. ونُشير إلى أنَّه، كلَّما قَوِيَ الاختلاف، قَوِيَ التَّأثير بنتيجته.

٧- حدُّ التـَّأثير

لا قدرة لشيء على تغيير خاصيِّيَّة في شيءٍ ثانٍ ما لم يكُن تأثيره متجاوزًا حدًّا معيَّنًا لا يحصُلُ تأثيرٌ من دونه، وذلك على الرَّغم من وجود المواجهة والاختلاف. والحدُّ المذكور يُقالُ له حدّ التَّأثير الأدنى.

وكذلك، فإنَّ التَّأثير لا يحدث إذا تجاوز حدًّا معيَّنًا يُقالُ له حدّ التَّأثير الأقصى.
فضغط الإنسان بيدَيه على حائطٍ ما يُعتبرُ تأثيرًا. ولكنَّ مثل هذا التَّأثير أضعف من أن يحرِّكَ الحائطَ لكونه دون الحدِّ المطلوب. كما أنَّ كرة قدم لا يُمكن وضعُها داخل كأسٍ صغيرةٍ لتعبئتها، كون الكرة تفوق الحدَّ الأقصى المفروض.

٨- شروط التـَّأثير

يُلاحظُ من البحث السَّابق أنَّ التَّأثير لا يحصُلُ إلاَّ من ضمن شروط معيَّنة، هي:
أوَّلاً- وجود شيئَين على الأقلّ، أحدهما المؤثِّر، والآخر المتأثِّر.
ثانيًا- وجود اختلاف بين هذَين الشَّيئَين.
ثالثًا- وجود أحدهما في مواجهة الآخر.

رابعًا– كون أحدهما على الأقلّ في حالة تغيير.
خامسًا – كون التَّأثير أقوى من الحدِّ الأدنى، وأضعف من الحدِّ الأقصى.

٩- التـّأثير الظَّاهر والتـّأثير الخفيّ

قد يحدث تأثير ويترك أثرًا (صفة) ظاهرًا على النَّاظِر في الشَّيء المتأثِّر، فيُقال عندئذٍ لهذا التَّأثير إنَّه تأثيرٌ ظاهِر. بينما، ولأسباب عدَّة، قد لا يترك تأثيرٌ ما تأثُّرًا ظاهرًا في الشَّيء المتأثِّر، على الرَّغم من حدوثه، فيُقال عند ذلك لهذا التَّأثير إنَّه تأثيرٌ غيرُ ظاهِر، أو خَفيّ. ومن أسباب عدم ظهور تأثير ما، عدم المواجهة بين النَّاظِر والشَّيء المتأثِّر، أو كون التَّأثُّر دون الحدِّ الأدنى أو فوق الحدِّ الأقصى للنَّاظر.
ولا لزومَ للقول إنَّ تأثيرًا خَفيًّا لا يوجد بالنِّسبة إلى النَّاظِر.

١٠- التـّأثيرات الدَّاخليَّة والتـّأثيرات الخارجيَّة

التَّأثيرات الَّتي يتأثَّر بها شيءٌ ما، والصَّادرة عن أشياء المحيط، يُقال لها تأثيرات خارجيَّة (أي مصدرها خارج الشَّيء). وهناك تأثيرات في ما بين أجزاء الشَّيء عَينه يُقال لها تأثيرات داخليَّة. فإن لسعَتني بعوضة تأثَّرتُ بلسعتها، وكانَ تأثيرها خارجيًّا؛ وإذا آلمتني ضرسٌ نخرَتها سوسةٌ، لتأثَّرتُ كذلك، ولكانَ التَّأثير داخليًّا.

١١- المحوِّل

هناك أشياء مؤثِّرة قد لا يُصيبُ تأثيرُها أشياء أخرى لأسباب عدَّة أصبحنا نعرفُها.

لكن وُجدَت أشياء قادرة على التَّأثُّر بذلك التَّأثير وعلى نَقله إلى تلك الأشياء الأخرى بنوعيَّة مختلِفة قادرة على التَّعامل معها. وهذه الأشياء يُقالُ لها محوِّلات.

فإذا ضرب إنسانٌ بيده وبحركة خفيفة على صفحة بيضاء، لا يُمكنه أن يترك تأثُّرًا ظاهرًا على تلك الورقة. أمَّا إذا تناول قلمًا وعاوَد الحركة نفسها، فإنَّ هذا القلم سيحوِّل تلك الحركة (تأثير) إلى رمز مَطبوع على تلك الورقة.
كما أنَّ المِذياع يحوِّل صوت الإنسان (تأثير) إلى تيَّار كهربائيّ (تأثير بنوعيَّة مختلِفة) قادر على الوصول إلى مسافات كبيرة لا يُمكن الصَّوتَ الوصولُ إليها. وكذلك، يحوِّل جسم الإنسان الغذاء (تأثير) إلى اضطِراد في النُّموّ (تأثُّر) لا يُمكن الإنسانَ الحصولُ عليه من الخارج (النُّموّ لا يُلصق لصقًا من الخارج).

وهكذا، يُصبح المحوِّل شيئًا قادرًا على التِقاط تأثير خاص، وعلى نقلِه بنوعيَّة مختلِفة إلى شيءٍ ثانٍ لا يتأثَّر مباشرةً بهذا التَّأثير، وإنَّما بالتَّأثير الجديد. فيُقال إنَّ المحوِّل حوَّل التَّأثير من نوع إلى نوع آخر.

وقد يكون المحوِّل سلسلةً من أشياء متجاورة تؤلِّف كلاًّ قادرًا على نقل تأثيرات معيَّنة وتحويلها تفاعلاتٍ قادرةً على تأثير أشياء خاصَّة.

١٢- الشّرك والإثارة

الشّرك هو شيء قادر على نقل تأثير خاصٍّ بتغيير معيَّن بعد أن يكون هو قد تغيَّر على نحوٍ أساسيٍّ لا يمكنه، بعامَّةٍ، أن يستعيد بعدها حالتَه الأولى. وقد يكون الشّرك مجموعة أشياء مرتبطة بترتيب مناسب تؤلِّف طريق انتشار قادرًا على نقل ذلك التَّأثير بتغيير معيَّن بعد أن تكون المجموعة عَينُها قد تغيَّرت.

من هنا نرى أنَّ الشّرك هو محوِّل لا يعمل إلاَّ لمرَّة واحدة؛ إذ أنَّ التَّغيير الَّذي يصيبُه لا يسمح له بالعمل مجدَّدًا إلاَّ إذا أُعيد من الخارج إلى حالته الأولى. وإنَّ المحوِّل هو نفسُه شرك؛ ولكن، بينما يُنظر إلى المحوِّل كشيء قائم بذاته، يُنظر إلى الشّرك من خلال التَّأثير النَّاتج منه.

والشّرك لا يبدأ العمل إلاَّ عندما يظهر التَّأثير الأوَّل. ويُقال عندئذٍ إنَّ الشّرك قد انطلق، وإنَّ ذلك التَّأثير كوَّن الإثارةَ الَّتي أطلقَته. فالإثارة هي الشَّرط الأوَّل الَّذي وجبَ وجودُه كي ينطلق الشّرك. ويُقال للجزء الأوَّل الَّذي يتلقَّف الإثارة مفتاح الشّرك.

وتختلف الأشراك باختلاف تكوينها، وبعدد أجزائها، وبنوعيَّة الإثارة، وبالتَّأثير النَّاتج الخاصّ. فهناك أشراك بسيطة، وأشراك معقَّدة، وأشراك متعدِّدة المفاتيح وطرق الانتِشار.

فالمخل شركٌ بسيطٌ مؤلَّفٌ من قضيبٍ طويلٍ ومُرتكَزٍ صلبٍ ثابت. فإذا أُثير بالضَّغط على أحد طرفيه إلى الأسفل مثلاً (إثارة)، ينتقل التَّأثير إلى الطَّرف الآخر، ولكن باندفاع إلى الأعلى (تأثير بنوعيَّة مختلِفة). والقنبلة شركُ إثارتها شرارةُ نار، وتغييرُها وتأثيرُها النَّاتجان معروفان. وأمَّا الآلة الحاسبة فشرك معقَّد نسبيًّا. وهي من الأشراك المتعدِّدة المفاتيح؛ فإن لمسنا أحد أزرارها (إثارة)، ظهرت على شاشتها رموزٌ وأرقام.

الفصلُ الثـَّالث
في الشُّروط والظُّروف

١- الشُّروط الوجوديَّة

لا يُمكن وجود شيء (لا يُمكن لشيء أن يؤثِّر) إلاَّ من ضمـــن شروط معيَّنة (شروط التَّأثير). وليست هذه الشُّروط سوى صفاتِ أشياء المحيط وخاصِّيَّاتِها، وصفاتِ الشَّيء نفسِه وخاصِّيَّاتِه الَّتي، إنْ وُجِدَت، أثَّرت؛ وإنْ أثَّرَت، كانت صفاتٍ بالنِّسبة إلى ذلك الشَّيء.

وبالتَّالي، مَن قال شرطًا لشيء، قال قدرةً على تأثير ذلك الشَّيء، وعلى إظهاره بصفة جديدة، أو على استمراره بصفة قديمة. فالإنسان يعيش (يؤثِّر) من ضمن شروط وجوديَّة، منها وجود الهواء. وما الهواء سوى شيءٍ من أشياء محيطه، يؤثِّر في الإنسان لجهة استِمرار بقائه.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ كلَّ خاصِّيَّة في شيء ما لها تأثيرٌ مباشرٌ على النَّاظِر، وتُعرف من هذا النَّاظِر بذلك التَّأثير.

وأمَّا الشَّرط فتأثيره غير مباشر على النَّاظِر، ولا يُعرف بذلك التَّأثير، وإنَّما بتأثُّر الشَّيء المَنظور الَّذي تأثَّر به مباشرة. وعليه، فالشَّرط يتطلَّب ثلاثة عناصر: الشَّيء المؤثِّر، والشَّيء المتأثِّر، والنَّاظِر.

والشَّرط، بنفسه، شيء؛ وهو يتأثَّر بشروط أخرى؛ وعليه، فالشُّروط في ارتباط. والشُّروط تتغيَّر، ويُلاحظ النَّاظِر ذلك من تغيُّرات الشَّيء المَنظور؛ ولا عجَب، فالشُّروط أشياء، والأشياء في تغيير مستمرّ.

٢- الشُّروط الدَّاخليَّة، والشُّروط الخارجيَّة

الشُّروط المتعلِّقة بصفات الشَّيء عَينِه أو بخاصِّيَّاته، أو بأجزائه، يُقال إنَّها شروطٌ داخليَّة؛ فيما الشُّروط القائمة على خاصِّيَّات المحيط، يُقال إنَّها شروطٌ خارجيَّة.

فَلِكَي يبدأ التَّلَّج بالذَّوبان يجبُ أن يكون الماء جامدًا (صفة داخليَّة، وبالتَّالي، شرط داخليّ)، وأن تكون حرارة المحيط أعلى من الصِّفر (صفةٌ خارجيَّةٌ للهواء، وبالتَّالي، شرطٌ خارجيّ).

ولِكَي تنجذب مغناطيسيًّا قطعةٌ معدنيَّةٌ يجبُ وجود قطعة مُمَغنطة (شرطٌ خارجيّ)، وأن تكون القطعة المعدنيَّة من حديد (شرطٌ داخليّ).

٣- مقارنة الشُّروط

تعرَف الشُّروط، كما رأينا، بنتائج تأثيراتها على الشَّيء المَنظور، إذ إنَّها تعمل على إيجاد صفة فيه. وإذ نلاحظ اختلافَ هذه النَّتائج، يُمكننا، بالتَّالي، القولُ إنَّ الشُّروط تختلف، وهذا لا شك فيه كون الشُّروط خاصِّيَّات.

وتقارَن الشُّروط بنتائج تأثيراتها على الشَّيء المَنظور عَينِه. فالشُّروط المتجانسة أو النَّوعيَّة هي الشُّروط الَّتي تُعطي نتائجَ مُتجانسةً أو نوعيَّة، أي الَّتي تكون نتائجُ تأثيراتها صفاتٍ متجانسةً أو نوعيَّة.

والشُّروط الذَّاتيَّة هي الشُّروط الَّتي تُعطي صفاتٍ ذاتيَّةً في الشَّيء المَنظور، مع العلم أنَّه يُمكن ألاَّ تكون هذه الشُّروط ذاتيَّةً بحدِّ ذاتها كخاصِّيَّات. فالعَرَق يؤثِّر في الماء، فيُعطيه لونًا أبيضَ؛ وكذلك، إذا زيدت إلى الماء بعض الدّهانات، تُعطيه لونًا أبيض. فالعَرَق، والدّهان المذكور، يمكنهما أن يكونا ذاتيَّين إذا أعطيا الماء اللَّون الأبيض عَينَه، وذلك على الرَّغم من أنَّ العرق والدّهان لا صفاتٍ ذاتيَّةً بينهما.

وقد تقارَن الشُّروط بالنِّسبة لما هي كخاصيَّات؛ ولكن، إذا قورنَت بهذه الطَّريقة، أصبحت مقارنة صفات، أو لافترضنا أن تأثيرها مباشر علينا، ولانتَفَت عنها، بالتَّالي، صفةُ الشَّرط. ففي المَثل السَّابق، العَرَق والدّهان شرطان متجانسان وذاتيَّان، أمَّا لجهة الخاصيَّات، فهما لا يتشاركان بأيِّ صفة خاصَّة.

٤- الشُّروط الظَّاهرة والخَفِيَّة

الشُّروط الظَّاهرة هي الشُّروط الَّتي تكون تأثيراتُها على الشَّيء المَنظور ظاهرة. وأمَّا الشُّروط الخَفِيَّة فتكون تأثيراتُها على الشَّيء المَنظور غير ظاهرة.

٥- الشُّروط العكسيَّة

الشُّروط العكسيَّة لشرطٍ يعملُ على إيجاد صفةٍ في شيءٍ ما، هي الشُّروط الَّتي تعملُ على إيجاد صفاتٍ عكسيَّةً لتلك الصِّفة، أي الَّتي تكون سببًا لتلك الصِّفات العكسيَّة. ونعني هنا، بالعكسيَّة، عكسيَّةً وجوديًّا، أو درجيًّا.

٦- الشُّروط الملائمة وغير الملائمة

إن شرطًا ملائمًا لاستِمرار صفة أو لتغييرها في اتِّجاه معيَّن هو شرطٌ يعمل، أو قد يعمل، لاستمرار تلك الصِّفة، أو لتغييرها في ذلك الاتِّجاه. فوجودُ الهواء يعملُ لبقاء الإنسان (استِمراره)، وهو، بالتَّالي، شرطٌ ملائمٌ لاستِمراره. والدّهان الأحمر يعملُ على تغيير الحائط الأبيض إلى أحمر، وهو، بالتَّالي، شرطٌ ملائمٌ لهذا التغيير نحو الأحمر.

وشرطٌ غير ملائم لاستِمرار صفة أو لتغييرها في اتِّجاه معيَّن هو شرطٌ يعملُ على قطع ذلك الاستِمرار، أو على تغيير الصِّفة في اتِّجاه معاكس للاتِّجاه المعيَّن. فوجودُ الغاز الكربونيِّ بدل الهواء يعملُ على هلاك الإنسان (عدم استِمراره)، وهو، بالتَّالي، شرطٌ غير ملائم لاستِمراره. والدّهان الأزرق يعملُ على تغيير الحائط الأبيض إلى أزرق، وليس إلى أحمر، أي في اتِّجاه معاكس للتَّغيير المطلوب، وهو، بالتَّالي، شرطٌ غير ملائم للتَّغيير نحو الأحمر.

٧- الوفرة والشُّروط المتوفِّرة

الوفرة بالنِّسبة إلى صفة ما في الشَّيء هي الحالة الَّتي تتوفَّر فيها (توجَد) في ذلك الشَّيء شروط ملائمة لاستِمرار تلك الصِّفة فيه. والشُّروط المتوفِّرة تصبح الشُّروط الموجودة والملائمة لاستِمرار تلك الصِّفة. وأمَّا الشُّروط غير المتوفِّرة، فتصبح الشُّروط غير الموجودة، والَّتي، إنْ وُجِدَت، غدَت شروطًا متوفِّرة.
والوفرة تُنسب إلى الصِّفة المستمرَّة، وإلى النَّاظِر، والوقت الَّذي يُصار البحثُ فيه.

٨- الفرض والشُّروط المَفروضَة

الفرض بالنِّسبة إلى صفةٍ ما في شيء هي الحالة الَّتي يكون فيها الشَّيء عندما يوجَد تحت تأثير شروط غير ملائمة لاستِمرار تلك الصِّفة فيه. والشُّروط المَفروضة هي الشُّروط الموجودة وغير الملائمة لاستِمرار صفة ما في الشَّيء. وكذلك يُنسب الفرض إلى الصِّفة المستمرَّة، وإلى النَّاظِر، والوقت الَّذي يُصار فيه البحث.

٩- الشُّروط الضَّاغطة، والشُّروط الظَّرفيَّة

إنَّ شرطًا ضاغطًا هو شرط مفروض ومستمرّ، يعمل على تغيير صفة في الشَّيء

المتأثِّر على نحوٍ متواصِل. والصِّفة قد لا تتغيَّر مباشرة، إذ قد توجَد لديها بعض الشُّروط المتوفِّرة الَّتي تمنع عنها تأثيرات ذلك الشَّرط المَفروض. وأمَّا الشَّرط الظَّرفيّ، أو الآنيّ، فهو شرطٌ مَفروضٌ أيضًا، وإنَّما يعمل نسبيًّا لوقت قصير جدًّا. فشمس الصَّيف المُحرقة تؤلِّف شرطًا ضاغطًا، إذ إنَّ تأثيرَها يتواصلُ لشهور طوال، ويوميًّا، لساعاتٍ عديدة. وأمَّا الآلة الحادَّة فتؤلّف شرطًا ظرفيًّا، إذ إنَّ تأثيرها في قطع ورقة لا يدومُ سوى ثوانٍ معدودة.

١٠- في الظُّروف (راجِع ظروف الشَّيء)

كلُّ ما قيلَ عن الشُّروط يصُحُّ في الظُّروف. فهناك الظُّروفُ الدَّاخليَّةُ والخارجيَّة، والظُّروفُ الملائمةُ وغير الملائمة، كما الظُّروفُ المتوفِّرةُ وغيرُ المتوفِّرة، والمَفروضة.

١١- في الكمال النِّسبيّ

كمالُ شيءٍ ما بالنِّسبة إلى استمرار صفةٍ فيه هو الحالةُ الَّتي يكونُ فيها الشَّيءُ عندما تتوفَّرُ له شروطٌ لاستمرار تلك الصِّفة أقوى من الشُّروط المَفروضة، أي عندما تكونُ الشُّروط المتوفِّرة قادرةً على منع تغيير تلك الصِّفة. وهذا الكمالُ كمالٌ نسبيّ، أي نسبةً إلى صفةٍ في الشَّيء.

والكمالُ النِّسبيُّ ليس بمرتبةٍ واحدة. فهناك للشَّيء الواحد حالةُ الكمال، وحالةُ الكمال الأكبر، وحالةُ الكمال الأقلّ، وذلك بحَسَب قوَّة الشُّروط المتوفِّرة وقوَّة الشُّروط المَفروضة. فقد ينقلبُ كمالٌ إلى غير كمال، أي إلى تغيير الصِّفة المعنيَّة إذا ضعفت الشُّروط المتوفِّرة، أو إذا ظهرت شروطٌ مفروضةٌ أقوى من الشُّروط المتوفِّرة. وقد

ينقلبُ كمالاً أكبرَ في الحالة العكسيَّة، أي عندما تتوفَّرُ للصِّفة شروطٌ أقوى. وهكذا، فكمالُ الشَّيء النِّسبيِّ يتدرَّجُ على سُلَّمٍ وُجوديّ، ويكونُ الشَّيءُ أكثرَ كمالاً كلَّما كانت شروطُه المتوفِّرة أقوى على السُّلَّم الوُجوديِّ المَنسوبِ إليها.

فإذا أخذنا كتابًا مَنسيًّا على طاولةٍ قديمةٍ كمِثالٍ على ذلك، تكونُ حالةُ كماله أن يبقى كتابًا مُتماسكًا وجيِّدًا. فإن كانت تعبقُ في الجوِّ رطوبة، قد تُؤذي تلك الرُّطوبةُ الكتابَ وتمثِّلُ شرطًا مَفروضًا يضربُ كمالَه. وأمَّا إذا توفَّرت للكتاب مادَّةٌ تمتصُّ الرُّطوبةَ لأصبحت حالةُ كماله أقوى. وإن غُلِّفَ الكتابُ بمادَّةٍ مضادَّةٍ للرُّطوبة والصَّدإ والعفونة والحريق لأصبحَ حتمًا في حالة كمالٍ قصوى.

١٢- في الكمال الفَرَضيّ

الكمالُ الفَرَضيُّ بالنِّسبة إلى شيءٍ ما هو الحالةُ الَّتي يكونُ فيها ذلك الشَّيء عندما تكونُ جميع صفاته في حالات كمالٍ نسبيَّةٍ مع الاكتمال الفئويِّ لذلك الشَّيء.

والكمالُ الفَرَضيُّ يتعلَّقُ بالشُّروط المفروضة، وبالشُّروط المتوفِّرة، وبمختلِف صفات الشَّيء، وبالنَّاظر أو الباحث الَّذي توجدُ كلُّ هذه بالنِّسبة إليه. ونقولُ فَرَضيًّا لأنَّه قد يتحوَّلُ إلى غير كمالٍ في حالة ظهور شروط مفروضة أقوى من الشُّروط المتوفِّرة.

والكمالُ الفَرَضيُّ على درجات، فهناك الشَّيءُ الكاملُ فَرَضيًّا، والشَّيءُ الأكمَل.

١٣- في الكمال المُطلَق

الكمالُ المُطلَقُ هو الحالةُ الَّتي لا يمكنُ شيئًا أن يتغيَّرَ فيها إن بالنِّسبة إلى صفةٍ فيه، أو إلى جزءٍ منه، لأنَّ شروط استمرار صفاته وأجزائه المتوفِّرة تكونُ في مُنتهى القوَّة. فالكمـــالُ المُطلَق هو مُنتهى الكمـــال الفَرَضيّ، وهو لا يتعلَّقُ أو يُنسَب إلى

صفة، بل إلى كلِّ الصِّفات معًا، ولا يتعلَّقُ ببعض الشُّروط، بل بكلِّ الشروط. ومن هذا التَّحديد يتبيَّنُ لنا أنَّ الكمالَ المُطلَقَ لا وجودَ مادِّيًا له.

أوَّلًا: لأنَّ الوجودَ قائمٌ على التَّأثير والتَّأثُّر، والكمالُ المُطلَقُ لا يتأثَّرُ ولا يتغيَّر.

ثانيًا: لأنَّ الصِّفاتِ الَّتي هي في مُنتهى القوَّة تدخلُ في صفر الدّرج الوُجوديّ، أي في اللاَّوجود؛ وعليه، فالكمالُ المُطلَقُ لا صفات فيه، ولا أجزاء، ولا شروطَ عنده.

الفصلُ الرَّابع
أنواع التـَّأثيرات

سبقَ ورأينا أنَّ كلمة تأثير قد تعني العمليَّة ككلّ، وقد تعني الخاصِّيَّة المُنتقلة من الشَّيء المؤثِّر نحو الشَّيء المتأثِّر. فلنبحَثْ في كلٍّ منهما على حِدَة.

١- أنواعُ التَّأثير كعمليَّة

نذكر أوَّلاً أنَّ التَّأثير كعمليَّة هو قضيَّة مُبادلة بين الشَّيء المؤثِّر والشَّيء المتأثِّر، يتمّ خلالَها نقلُ ما عند أحدهما من خاصِّيَّات إلى الآخر، برضاءٍ أو بإرغام.
ونميِّز في التَّأثير كعمليَّة الآتي:

١"- التَّأثير البطيء، والتَّأثير السَّريع

قد يحدث التَّأثير على نحوٍ بطيء أو على نحوٍ سريع، فيُنعَت ساعتئذٍ بما يُقتضى. وهذا التَّمييز نسبيّ، أي أنَّه يُنسَب إلى الوقت الَّذي يُعتبر قصيرًا أو طويلاً، وإلى الباحث، وإلى تأثيراتٍ أخرى قد تكونُ أسرعَ أو أبطأ.

٢"- التَّأثير البتريّ، والدَّمجيّ، والتَّشكيليّ

يتغيَّر الشَّيء المتأثِّر إمَّا بفكِّ بعض الارتِباطات بين أجزائه، وإمَّا بارتِباطه بأجزاء جديدة، وإمَّا بتغيير شكله من دون تغييرٍ بكمِّيَّة أجزائه، أي بتغيير نوعيَّة ارتِباطات أجزائه. ويُطلَق على العمليَّة ككلّ، في الحالة الأولى، اسمُ "تأثير بتري"، وفي الحالة الثَّانية، اسمُ "تأثير دمجي"؛ وأمَّا في الحالة الأخيرة فيُطلَق اسمُ "تأثير تشكيلي"، أي إعادة صَوغ الشَّكل أو الهندسة.

فقَطعُ غصن شجرة هو تأثيرٌ بتريٌّ للشَّجرة، بينما ريُّ الأرض تأثيرٌ ترتبط فيه الأتربة بالماء المَرشوش (تأثير دمجي). وأمَّا ضربُ لوحٍ معدنيٍّ بمطرقة فتأثيرٌ يغيِّرُ هندسةَ اللَّوح (تأثير تشكيلي).

٣"- التَّأثير الصّدفيّ، والتَّأثير التَّصميميّ

قد يحدث التَّأثير على نحوٍ عابر، ومن دون أيِّ اتِّصال سابق بين الشَّيء المؤثِّر والشَّيء المتأثِّر، فيُقال عنه إذ ذاك إنَّه "تأثير صدفي" أو صدفة. وأمَّا إذا حدث بمواجهة مستمرَّة، حتَّى ولو كان بتقطُّع مرَّةً بعد مرَّة، فيُقال فيه إنَّه تأثيرٌ تصميميّ. فإن مرَرت بدكَّان، وكان الحانوتيُّ يصيح بمعاونه، لتأثَّرت بما سمعت عن طريق الصّدفة. أمَّا إذا سمعت جاري وهو يصرخ على ولده اليومَ تلو الآخر، لتأثَّرت، وكان التَّأثير تصميميًّا (تصميم جاري على تأديب ابنه، وتصميمي أنا على البقاء للاطِّلاع على ما ستؤول إليه الأمور).

٤"- التَّأثير العشوائيّ، والمركَّز، والمنتَظِم

نميِّز كذلك بين التَّأثير العشوائيّ، والتَّأثير المركَّز، والتَّأثير المُنتَظِم. فالتَّأثير العشوائيُّ هو التَّأثير الَّذي يصيبُ عددًا من أجزاء شيء ما أو من أفراد مجموعة ما، من دون قانون أو نظام. وأمَّا التَّأثير المُنتَظِم، فهو الَّذي يصيب عددًا من أفراد مجموعة أو كلِّ الأفراد على نحوٍ مُنتَظِم ودوريّ. وأمَّا التَّأثير المركَّز، فهو تأثير يصيب فقط فردًا، أو عدَّة أفراد مميَّزين من المجموعة.

٥"- التَّأثير المستمرّ، والتَّأثير الآنيّ

هناك تأثير يُقال له تأثير باقٍ أو مستمرّ، تبقى فيه المواجهة قائمة، كتأثير الشَّمس المستمرِّ على ما يقعُ عليه ضوؤُها. وهناك تأثير ينقطع فِعلُه بعد مواجهة قصيرة، يُقال له تأثير آنيّ أو عابِر أو ظرفيّ، من مِثل انهيار جدار على إثر هزَّة أرضيَّة.

٦"- التَّأثير المتقطِّع، والتَّأثير المتواصِل

التَّأثير المتقطِّع هو تأثير يعمل لوقتٍ ما، ثمَّ يتوقَّف، وبعدها يعاودُ العمل ليتوقَّف ثانيةً، ثمَّ يعاودُ الكرَّة مرَّةً بعد مرَّة. وأمَّا التَّأثير المتواصِل فهو التَّأثير الَّذي يعمل من دون توقف. فيُمكن قَطعُ شجرة بضربات فأس متقطِّعة ومتلاحقة، كما يُمكن قطعُها بواسطة منشار كهربائيٍّ يعمل على نحوٍ ثابتٍ ومستمرّ.

٧"- التَّأثير الجزئيّ، والتَّأثير الكُلِّيّ

التَّأثير الجزئيُّ هو الَّذي يصيب جزءًا معيَّنًا من الشَّيء، فيتغيَّر ذلك الجزء من دون سواه. وأمَّا التَّأثير الكُلِّيُّ فيصيب كلَّ الأجزاء.

٨"- التَّأثير المباشر، والتَّأثير غير المباشر

التَّأثير المباشر هو الَّذي يحصل بين الشَّيء المؤثِّر والشَّيء المتأثِّر مباشرة. وأمَّا التَّأثير غير المباشر فهو التَّأثير الَّذي يتطلَّب شيئًا ثالثًا ينتقل خلاله التَّأثير من الشَّيء المؤثِّر نحو الشَّيء المتأثِّر.

٩"- التَّأثير الأساسيّ، والتَّأثير الثَّانويّ

التَّأثير الثَّانويُّ هو التَّأثير الَّذي يصيب المتأثِّر في صفاته الخاصَّة الَّتي لا تُخرج الشَّيء من فئته. وأمَّا التَّأثير الأساسيُّ فهو الَّذي يصيب الصِّفاتِ العامَّةَ الَّتي، إنْ تغيَّرَت، أخرجتِ الشَّيء المتأثِّر من فئته لينتسب إلى فئة جديدة.

١٠"- التَّأثير الدَّالّ، والتَّأثير الرَّمزيّ

التَّأثير الدَّالُّ هو التَّأثير الَّذي يترك فيه الشَّيء المؤثِّر جزءًا من ذاته يُعرَف به. والتَّأثير الرَّمزيُّ هو التَّأثير الَّذي يتطلَّب مُحَوِّلاً ينقل تأثير الشَّيء المؤثِّر بتغيير نحو الشَّيء المتأثِّر، على نحوٍ لا تُعرَفُ معه حقيقتُه.

٢- التـّأثير المنتقِل، وأنواعه

التَّأثير المُنتقِل هو الخاصِّيَّة المُنتقِلَة من الشَّيء المؤثِّر نحو الشَّيء المتأثِّر.

١"- أنواع التَّأثير المُنتقِل

الخاصِّيَّات المُنتقِلَة على أنواع، نذكر منها: الحركة، والمادَّة، والسُّخونة، والضَّوء، والطَّاقة، والمعرفة.

- **الحركة كتأثير مُنتقِل**

الحركة هي تغييرٌ في مراكز الأجزاء أو الأفراد أو الأشياء ككُلّ. وتؤلِّف الحركة إحدى الخاصِّيَّات المُنتقِلَة من الشَّيء المؤثِّر نحو الشَّيء المتأثِّر بعد حادث تصادم بعامَّة، شرط أن يكون الشَّيء المؤثِّر متحرِّكًا، والشَّيء المتأثِّر قابلاً للحركة. فكرة متحركة تعطي حركتها لكرة ثابتة بعد اصطدامها بها.

- **المادَّة كتأثير مُنتقِل**

قد تكون المادَّةُ التَّأثيرَ المُنتقِل، يُعطيها الشَّيء المؤثِّر إلى الشَّيء المتأثِّر، أو ينتزعُها الشَّيء المتأثِّر من الشَّيء المؤثِّر في أثناء مواجهة، شرطَ أن يكون عند الشَّيء المؤثِّر ما يعطيه، وأن يكون الشَّيء المتأثِّر قادرًا على احتواء ما يأخذ. فكوبٌ من الزَّيت قادرٌ على إعطاء ذلك الزَّيت لما قد يُصبُّ عليه، شرطَ أن يكون ذلك الشَّيء قادرًا على امتِصاص الزَّيت، أو على احتوائه. والقلم يترك من رصاصه رمزًا على الورق، والشِّتاء يبلِّل الأرض بمائه.

ولا بدَّ من أن نُشير إلى أنَّ انتِقال المادَّة هو، في حَدِّ ذاته، حركة، حركةُ انصِباب المادَّة المُنتقِلَة. كما نشير إلى أنَّنا قد توفَّقنا، في هذا الإطار، بتفسير نظريَّة الجاذبيَّة الَّتي قدَّمها العالم الكبير نيوتن من دون توضيح سببها، وتقضي هذه النَّظريَّة بوجود جَذبٍ متبادَلٍ بين أي شيئَين ماديَّيْن قائمَين واحدُهما بمواجهة الآخَر.

والواقع أنَّ القضيَّة ليست قضيَّة جَذب بكلِّ ما في الكلمة من معنًى؛ وإنَّما هي محاولة استيلاء أحد الشَّيئَين على مادَّة الشَّيء الآخر، أو إعطاء أحد الشَّيئَين من مادَّته الشَّيءَ الآخر (تأثير).

- **السُّخونة كتأثير مُنتقِل**

السُّخونة (أو البُرودة) يُمكن أن تكون تأثيرًا مُنتقِلاً بين الشَّيء السَّاخن والشَّيء الأقلّ منه سخونة، شرطَ أن يكون بينهما اتِّصالٌ بمواجهة مباشرة، أو خلال واسطة انتشار ناقِل للحرارة. ومَن هو ضليع في علم الفيزياء يعلم أنَّ السُّخونة تتعلَّق بسرعة حركة الجزئيَّات. والتَّأثير يكون في هذه الحال تأثيرَ حركة بين جزئيَّات الشَّيء السَّاخن وجزئيَّات الشَّيء البارد.

- **الصَّوت كتأثير مُنتقِل**

الصَّوت، كذلك، تأثير مُنتقِل من مصدر الصَّوت نحو لاقِطه. وهو يتطلَّب واسطةَ انتِشار (الهواء في العادة).

ونشير إلى أنَّ الصَّوت لا وجودَ فعليًّا له. فهو ردُّ فِعل الدِّماغ (صورة دماغيَّة) على تأثُّر الأذن بذبذبة الهواء المُلتَصِق بها. وهذه الذَّبذبة هي الَّتي تنتقل في الهواء (ذبذبة جزيئات الهواء)، أو في أيِّ واسطة أخرى كالسَّوائل (حتَّى الجماد) لتسبِّب انتِقال الصَّوت. وعليه، فالصَّوت نوعٌ من حركة مُنتقِلَة.

- **الضَّوء كتأثير مُنتقِل**

الضَّوء هو تأثير مُنتقِل من مصدر الضَّوء نحو لاقِطه. ويظهر أنَّ الضَّوء ليس في حاجةٍ إلى واسطة انتِشار كالصَّوت، إذ أنَّه يخترق الخواء من دون حاجة إلى ما يحمله.

ويُطَبَّق هذا التَّحديد أيضًا على كلِّ ما هو شبيه بالضَّوء ممَّا يُسمَّى بالتَّموُّجات الكَهرومغناطيسيَّة من الأشعَّة ما دون الحمراء، والأشعَّة فوق البنفسجيَّة، والأشعَّة السِّينيَّة، وتموُّجات الرَّاديو، وغيرها.

ولا بدَّ من أن نشير كذلك إلى أنَّ الضَّوء، كالصَّوت، لا وجودَ فعليًّا له، إذ أنَّه ردُّ فِعل الدِّماغ (صورة دماغيَّة) على تأثُّر العين بذبذبة خاصَّة. وهذه الذَّبذبة هي الَّتي تنتقل في المادَّة أو خارجَها لتسبِّب انتقال الضَّوء. وهكذا، يصبح الضَّوء كذلك نوعًا من حركة مُنتقِلَة.

- **الطَّاقة كتأثير مُنتقِل**

الطَّاقة هي قدرة شيء ما على التَّأثير في شيء آخر. فالشَّيء المادِّيُّ لديه طاقة المادَّة لأنَّه قادر على أن يعطي من تلك المادَّة. والشَّيء المتحرِّك لديه طاقة الحركة لأنَّه قادر على أن يعطي من تلك الحركة. والشَّيء السَّاخن لديه طاقة السُّخونة لأنَّه قادر على أن يعطي من تلك السُّخونة، وهكذا دوالَيك...

نرى، من هذا التَّحديد، أنَّ الطَّاقة تختزل كلَّ ما هو تأثير مُنتقِل ممَّا سبقَ وذكَرنا. ولذا، قد نذكر الطَّاقة لِنَعنيَ الضَّوء أو السُّخونة أو كلَّ تأثير آخرَ مُنتقِل.

- **المعرفة كتأثير مُنتقِل**

هذا التَّأثير يقتصر بمفهومه على الكائِنات الحيَّة. فالإنسان الضَّليع بمادَّة مَعرفيَّة مُعَيَّنَة يعطي ما عنده منها إلى من هم دونه معرفةً في تلك المادَّة.

٢"- طرائِقُ انتِقال التَّأثير

هناك، على الصَّعيد الحسِّيّ، أو المادِّيّ، عدَّة طرائِق لانتِقال تأثيرٍ من شيءٍ مؤثِّر نحو شيءٍ متأثِّر؛ وهناك التَّأثير المباشر، والتَّأثير غير المباشر.

• **الانتِقال المباشر**

تبعًا لهذه الطَّريقة، ينتقل التَّأثير مباشرةً من الشَّيء المؤثِّر نحو الشَّيء المتأثِّر من دون حاجة إلى طريق انتِشار. ولكن، في هذه الحال، وجبت المواجهة المباشرة أو الاتِّصال المباشر. فكرةٌ متحرِّكةٌ لا يُمكن أن تعطي من حركتها كرةً متوقِّفة، إلا إذا اصطدمت بها (إتِّصال مباشر)؛ وجسم ساخن لا يمكن أن يعطي من سخونته جسمًا أقلَّ منه سخونة إلاَّ إذا كان في اتِّصال مباشر معه.

• **الانتِقال عبر وسطٍ ناقِلٍ التَّأثيرَ**

تبعًا لهذه الطَّريقة، ينتقل التَّأثير من الشَّيء المؤثِّر نحو الشَّيء المتأثِّر على نحوٍ غير مباشر عبر طريق انتِشار من أشياء لا تمتُّ بصلةٍ لا إلى الشَّيء المؤثِّر، ولا إلى الشَّيء المتأثِّر، شرطَ ألاَّ يحتوي هذا الطَّريق مُحَوِّلاً لذلك التَّأثير. فالسُّخونة قد تنتقل من الشَّيء السَّاخن نحو الشَّيء البارد غير المُلتصِق به، شرطَ أن تفصل بينهما أشياء قابلة للسُّخونة.

• **الانتِقال بواسطة حامِلِ التَّأثير**

قد ينتقل التَّأثير من شيءٍ أوَّلَ إلى شيءٍ ثانٍ بواسطة شيءٍ ثالث، ثابتٍ أو متحرِّك، يُقال له الحامِل أو الواسطة. فحركةُ يد إنسانٍ واقفٍ على رصيف قد تصل إلى جرسٍ عالٍ مُتَدَلٍّ، إمَّا بواسطة حجر يقذفُه هذا الإنسان نحو الجرس (فيحمل الحجر عندها تلك الحركة نحو الجرس)، وإمَّا بواسطة حبل مربوط بالجرس. كما أنَّ المياه قد تنقل من مستودع في إحدى البنايات إلى أحد المنازل، إمَّا بواسطة دلوٍ متحرِّكٍ يحمله أحدهم، وأمَّا بواسطة أنبوب ثابت يصلُ المستودعَ بالمنزل.

• **الانتِقال بالتَّمَوُّجات**

التَّمَوُّجـــات هي طريقة انتِقـــال تأثير من شيءٍ ما مؤثِّر نحو شيءٍ آخرَ متأثِّر عبرَ

وسط ناقلٍ لذلك التَّأثير، وذلك بانتِقاله مداورةً من العنصر الأوَّل في ذلك الوسط، والمرتبط بالشَّيء المؤثِّر، إلى العنصر الأخير منه والمرتبط بالشَّيء المتأثِّر، مرورًا بالعناصر الباقية الَّتي تربط العنصر الأول بالعنصر الأخير. فالماء قد تنتقل من المستودع إلى المنزل بواسطة صفٍّ من الرِّجال، عندما يأخذ الرَّجل الأوَّل دلوًا مملؤاً ماءً، ويُعطيه جارَه، وهذا الجار إلى الجار الَّذي يليه، وهكذا دواليك حتَّى آخر رجل عند باب المنزل. وقد يكون التَّأثير المُنتقِل عبر هذا الوسط حركة أو مادَّة أو صوتًا، كما يمكن أن يكون خصائص كهرومغناطيسيَّة من ضوء أو ما هو شبيه بالضَّوء.

الفصلُ الخامس
الأثـَر والذَّاكِرَة والتـَّذكـُّر

١- الأثر / الأثر الظَّاهر والأثر الخَفيّ

لقد رأينا أنَّ التَّأثُّر هو الصِّفة الجديدة الَّتي يكتسبُها الشَّيء المتأثِّر إنْ من التَّأثير مباشرة، وإنْ من ردود الفِعل الدَّاخليَّة.

وهذا التَّأثُّر يستمرُّ في الشَّيء المتأثِّر حتَّى بعد زوال التَّأثير أو بعد انقِطاع المواجهة. ولكنَّ منه ما يبقى ظاهرًا، ومنه ما يختفي اختفاءً نتوهَّم معه أنَّ الشَّيء المتأثِّر قد عاد إلى حالته الأولى. فالكوب يتأثَّر بالماء عندما نسكب الماء فيه. ويستمرُّ هذا التَّأثير بعد زوال عمليَّة التَّأثير، أي بعد السَّكب. والتَّأثُّر، هنا، هو صفة امتلاء الكوب (أو صفة الكوب الممتلئ)، وهو تأثُّر ظاهر. وقد تشقُّ سكِّينٌ صفحة ماء (تأثير)؛ ولكن، سُرعانَ ما تعود تلك الصَّفحة إلى حالتها الأولى (تأثُّر خَفِيّ)، في حين أنَّ مراكز بعض حُبَيبات الماء تكون قد تبدَّلت داخليًّا من دون أن يكون هذا التَّبدُّل ظاهرًا. وهذا التَّمييز بين التَّأثُّر الظَّاهر والتَّأثُّر الخَفِيِّ نسبيٌّ، ويُنسَب إلى الشَّيء المتأثِّر وإلى الباحِث.

والأثر هو كلُّ تأثُّر ظاهر أم خَفِيّ؛ وبالتَّالي، هناك آثار ظاهرة وآثار خَفِيَّة. فماء الكوب أثرٌ ظاهر، وتبدُّل حُبَيبات الماء أثرٌ خَفِيّ، وحركة كرة كانَت متوقِّفة صدمتها كرة متحرِّكة أثرٌ ظاهر.

والفارق بين الأثر والتَّأثُّر نِسبيّ: ففي حين يُنظَر إلى التَّأثُّر من خلال عمليَّة التَّأثير ككلّ، يُنظَر إلى الأثر كشيء قائم بحدِّ ذاته.

ولِحدوث الأثر وبقائه شروط وأسباب كمُطلَق تغيير أو صفة؛ منها، مثلاً، المواجهة بين المؤثِّر والمتأثِّر، ومنها، أيضًا، نوعيَّة التَّأثير وما إلى غير ذلك.

فعند كلِّ تغيير أو تأثير هناك أثر.

وتحديد الأثر هذا يتلازم مع تحديد مُسَبِّب الأثر أو مصدره أو مُحدثه، وهو إمَّا أن يكون التَّأثير المُنتقل، أو الشَّيء المؤثِّر بالذَّات. فمُسَبِّب الأحرف المَطبوعة على هذه الورقة هو الصّبغ الأسود المُستعمَل في الطِّباعة، أو صاحب المِطبعة، أو أحد مُساعديه الَّذي عملَ على طباعة الكتاب.

٢- ميزة الأثر

بعد عمليَّة التَّأثير، يُصبح الأثر خاصِّيَّة أو صفة جديدة في الشَّيء الَّذي يحملُه؛ ولذا، فالأثر يظهر ويزول ويستمرّ ويتغيَّر كأيِّ صفة أو خاصِّيَّة أخرى. كما إنَّه يؤثِّر ويتأثَّر مثلها.

وتأثير الأثر خاصٌّ ومميَّز، ولاسيَّما متى كان حامِل الأثر فردًا من مجموعة أو فئة. عندها يكون لذلك الفرد تأثير يتفرَّد به عن باقي أفراد فئته. فإذا أُصيب بيت بقنبلة أدَّت إلى تدميره، يكون أثر القنبلة (أي الدَّمار) صفة مميّزة لذلك البيت بين مجموعة البيوت الَّتي ينتمي إليها.

والأثر، عندما يؤثِّر، إنَّما يكونُ ذلك بإحدى خصائص مُسَبِّبه. فنقول إنَّه يدلُّ على ذلك المُسَبِّب. فعندما تصبُّ ربَّة بيت بعض الزَّيت من قنِّينة فوق خلطة خضار، وتقع من هذا الزَّيت نقطة على الطَّاولة (أثر)، فهذه النّقطة ستلطِّخ أيَّ شيء يحتكُّ بها، تمامًا كما يفعل الزَّيت الَّذي ما زال في القنِّينة. والطِّفل الَّذي سمعَ السّباب والشَّتائم من ذَويه، يترسَّخُ هذا السّباب وتلك الشَّتائم على شكل آثار في ذاكرته. وقد يتفوَّه بها لاحقًا، تمامًا كما لو كان ذَووه يتفوَّهون بها. والشَّفرة الحادَّة تترك شقًّا دقيقًا في منديل حريريّ (أثر)، وهذا الشّقُّ يدلُّ مَن راقبَه أنَّ إحدى صفات مُسَبِّبه احتواءَه طرفًا حادًّا.

ونميِّزُ في الآثار الأثرَ التَّراكميَّ المتأتِّي من تأثيرٍ متتابعٍ يتركُ أثرًا يزدادُ ويكبرُ مع الوقت، والأثرَ الاندماجيَّ حيث يندمجُ التَّأثيرُ الواردُ مع جزئيَّات الشَّيء المتأثِّر اندماجًا يتغيَّرُ فيه هذا الشَّيء تغييرًا نوعيًّا.
كما نميِّزُ الأثرَ الحقيقيَّ الَّذي يدلُّ إلى مصدر المؤثِّر بالذَّات، والأثرَ الرَّمزيَّ الَّذي لا يدلُّ إلى حقيقة المؤثِّر، وكذلك نميِّزُ الأثرَ المستمرَّ والأثرَ الزَّائل.

٣- الذَّاكرة / السِّلسلة التَّذكُّريَّة / قراءة الذَّاكرة

ذاكرة شيءٍ ما هي مجموعة أجزاءٍ من ذلك الشَّيء، مُرتبطةٌ في ما بينها، وقادرةٌ على حفظ آثار مستمرَّة ذات نوعيَّة خاصَّة تتعلَّق بصاحب تلك الذَّاكرة.
والذَّاكرة ليست واحدة وفريدة، إنْ في شكلها ونوعيَّتها، وإنْ في طريقة حفظها الآثارَ، بل تختلفُ بين شيءٍ وشيءٍ آخر، أو بين فئةٍ من الأشياء وفئةٍ أخرى.
والذَّاكرة تكون فارغة بيضاء إذا لم تحمل، بعدُ، أيَّ أثر؛ وتكون مليئةً جزئيًّا أو كلِّيًّا إذا احتوَت على بعض الآثار. وتتكاثر الآثار فيها مع الوقت؛ وهذا التَّكاثر معقَّد بحَسَب تعقيد الذَّاكرة. فهناك التَّكاثر العشوائيّ، والتَّكاثر المركَّز، والتَّكاثر التَّراكميّ، والتَّكاثر المُنتَظِم، وغيرها من التَّكاثرات.
ففي التَّكاثر العشوائيّ، تأتي الآثار من دون انتِظام، وتأخذ مكانَها في أجزاء مختلِفة من الذَّاكرة على نحوٍ عشوائيّ. وفي التَّكاثر المركَّز، تتركَّز الآثار في جزء مُخَصَّص أو أجزاء مُخَصَّصة. وأمَّا في التَّكاثر التَّراكميّ، فتأتي الآثار بتلاحقٍ زمنيّ، فيتركَّز الأثر الجديد في الجزء الَّذي يلي تمامًا الجزء الَّذي تركَّز فيه الأثر السَّابق. وقد تتَّصلُ الآثار في الذَّاكرة في ما بينها، وترتبط، لتشكِّلَ، معًا، طريقَ انتِشار لتأثير خاصّ. ويُقال عندئذٍ لهذا الطَّريق، سلسلة ذاكريَّة أو سلسلة تذكُّريَّة.

وهذه السَّلاسل تصبح بالواقع أشراكًا بالغةَ التَّعقيد، بمعنى أنَّ أيَّ إثارة لأثر فيها تكون نتيجتَه تأثُّرُ الآثار الباقية المتعلِّقة به. ولذا، يُقال عن أوَّل تأثير إنَّه مُفتاح السِّلسلة، وعن تأثُّر السِّلسلة المُتوالي إنَّه قراءة الذَّاكرة، أو التَّذكُّر.

فالأرض، في نواحيها، ذاكرة: طبقاتها (مجموعة أجزاء) تحمل بقايا متَّصلة تراكميًّا (آثار ذات نوعيَّة خاصَّة)، لأنَّ مُسَبِّباتها (أصحاب البقايا) ارتبطت بتلاحقها الزَّمنيّ. ولذا، فطبقات الأرض تؤلِّف طريق انتِشار وأشراكًا، إذ إنَّه، عند إزالة طبقة ما، تظهر الطَّبقة التَّالية.

وبحَسَب نوع الأثر، تكون الذَّاكرة. فهناك الذَّاكرة الحقيقيَّة، والرَّمزيَّة، والصَّادقة، والكاذبة، وإلى ما هناك... فذاكرة الأرض ذاكرة حقيقيَّة، إذ إنَّ البقايا تدلُّ تمامًا على أصحابها. وذاكرة آلة التَّسجيل ذاكرة رمزيَّة، لأنَّ الآثار هي رموز مُمَغنَطَة على شريط تسجيل (ذاكرة)، ولا تدلُّ، كما هي، على أكثر من ذلك.

٤- التَّعلُّم والمعرفة

إنَّ تعلُّم شيءٍ ما هو زيادة السَّلاسل الذَّاكرية المتعلِّقة بذلك الشَّيء عند صاحب الذَّاكرة، وذلك بتفاعلات متلاحقة.

والتَّعلُّم يتعلَّق بنوعيَّة الذَّاكرة والآثار المَطبوعة فيها. فالأرض تتعلَّم عن حيوانها، أي تستزيد سلاسلها الذَّاكريَّة المتعلِّقة به، وذلك بزيادة آثاره التَّراكميَّة في الطَّبقة الواحدة.

وأمَّا المعرفة فهي ارتِباط السَّلاسل الذَّاكريَّة على نحوٍ مُطابق لارتِباط الأشياء الَّتي تركت الآثار في تلك الذَّاكرة. ومعرفة شيءٍ أوَّلَ عن شيءٍ ثانٍ هو وجود آثار في ذاكرة الشَّيء الأوَّل كان مُسَبِّبَها الشَّيءُ الثَّاني.

والمعرفة تعمَّق كلَّما ازدادتِ السَّلاسل الذَّاكريَّة، أي بالتَّعلُّم.

٥- التـَّـذَكُّر

التَّذكُّر البسيط هو إثارة أثر ما، أي جعل الأثر يتأثَّر، فيؤثِّر في حامله بخاصَّة، وعلى محيطه بعامَّة، على النَّحو الَّذي أثَّر به من قبل مسبِّبُ ذلك الأثر. فالنّقطة الَّتي سالَت من قنِّينة تحوي دواءً أحمر، سقطت أرضًا، وكوَّنت أثرًا على تلك الأرض. فإذا حُكَّت (إثارة)، أثَّرت في منطقة سقوطها باتِّساع رقعة الاحمِرار، وأثَّرت في أيِّ شيءٍ آخرَ احتَكَّ بها بإعطائه ذلك اللَّون، كأنَّ الدَّواء المَحفوظ في القنِّينة هو عَينُه الَّذي أثَّرَ، بغَضِّ النَّظر عن قوَّة ذلك التَّأثير.

وتذكُّر شيءٍ لصفة في شيء آخر هو تأثير ذلك الشَّيء على نحوٍ يُثير الأثر الَّذي تركه الشَّيء الآخر من تلك الصِّفة؛ فيؤثِّر ذلك الأثر في حامله وفي محيطه بنفس تأثير صفة الشَّيء الآخر، تمامًا كما لو كان هذا الأخير هو المؤثِّر المباشر عَينُه. وهذا التَّذكُّر يتطلَّب اتِّصالاً سابقًا أبقى فيه الشَّيءُ الآخرُ أثرَه في الشَّيء الأوَّل. فالأرض تتذكَّر الرُّومان؛ أي أنَّه، إذا نُبشَتِ الأرض (تأثُّر)، لَظهرَت بقايا بناء رومانيّ (إثارة الأثر)، ولأصبحتِ الأرض مع ذلك البناء (تأثير الأثر)، كما لو أنَّ الرُّومان أنفسَهم ما زالوا موجودين (تأثير الشَّيءِ المُسبِّبِ للأثر). ولا يمكنُ الأرضَ أن تتذكَّر شعبًا في بقعة من بقاعها ما لم يكن هذا الشَّعب قد مرَّ عليها وترك فيها أثرًا. والإنسان يتذكَّر صورةَ صديقه؛ فعندما يُذكر اسمُ الصَّديق أمامه (تأثُّر)، تعود صورة هذا الصَّديق تدغدغ (إثارة الأثر) ذاكرتَه (تأثير الأثر على حامله)، كما لو أنَّ الصَّديق نفسَه ما زال هناك (تأثير الشَّيءِ المُسبِّبِ للأثر).

وعلى العكس من ذلك، فإنَّ وجودَ ذاكرة أو تذكُّر في شيءٍ ما يدلُّ إلى أنَّ ارتباطًا سابقًا قام بين هذا الشَّيء وشيءٍ آخرَ تركَ فيه أثرَه. فعندما تُبَيِّنُ التُّربةُ في حَناياها بقايا بناءٍ فإنَّما تتذكَّرُ بذلك صاحبَ تلك البقايا وتدلُّ إلى أنَّها، أي التُّربة، ارتبطَت به سابقًا على نحوٍ أو على آخَر.

٦- الشَّيءُ تراكمُ آثار

ضربَ العاملُ المطرقةَ الثَّقيلةَ بقوَّةٍ على رأس المسمار، فانفلقَتِ الصَّخرة، وتطايرَ منها بعضُ القطع. إحدى هذه القطع حطَّت بعيدًا؛ أصبحت حجرًا حرًّا؛ تناولَه أحدُ الأطفال وقذفَ به على الطَّريق. ثمَّ مرَّ عليه بعضُ السَّيَّارات، منها ما تركَ عليه أثرًا أسودَ من العجلات، ومنها ما تركَ عليه أثرًا للزَّيت المحروق المتقطِّر منها لِقِدَمها. دكنَت ألوانُ الحجر مع بعض النُّقوش البيضاء، وبُريَت حروفُه الحادَّة من كثرة الاحتِفاف؛ وها هو الآنَ مَطروحٌ في حقلٍ زراعيّ.

الحجرُ بحدِّ ذاته أثَر (تأثيرٌ مادِّيٌّ من الصَّخرة المحطَّمة) في قطعة الحقل الَّتي حطَّ فيها (ذاكرة)، وهو يحملُ (ذاكرة ذاتيَّة) صفات الصَّخرة الَّتي انقطعَ منها، كما يحملُ آثارَ كلِّ ما تعرَّضَ له من تفاعلات أو تأثيرات صقلَته أو طبعَته بطابعها الخاصّ. وهذه الآثار تعملُ على إضفاء ميزاتها على تأثيراته: فبعض لونه أصبحَ أسودَ، وبعض ملمَسه أصبحَ ناعمًا كما أنَّ منظرَه أصبحَ ينمُّ عن القِدَم.

فالشَّيء، كلُّ شيء، ما هو سوى تراكمِ آثار. وكلُّ تأثيرٍ من تأثيراته، وكلُّ تأثُّرٍ من تأثُّراته تدخلُ فيها خصائص تلك الآثار، فيتذكَّر من خلالها المؤثِّرات الَّتي سبَّبتها. فعندما يلطِّخُ حجرُنا ببعض سواده يدَ طفلٍ التقطه، فإنَّما لأنَّه يتذكَّر تأثُّرَه هو بالزَّيت المَحروق من محرِّك إحدى السَّيَّارات، فأثَّرَ بتأثير ذلك الزَّيت عَينِه. وعندما يستسيغُ أحدُهم ملمَسه فلأنَّه يتذكَّرُ الاحتِفافَ الَّذي خضعَ له.

وكما الحجر، كذلك قطعة الأرض الَّتي أطأُ؛ فهي تحملُ آثارًا مماثلةً، لا بل كلُّها آثار بترابها، بحجرها، بصخرها، بنباتها، وبكلِّ ما وُجدَ عليها. وإذا ما بحثنا فيها كوَّنَّا فكرةً عمَّا جرى لها من تقلُّباتٍ وتأثيرات. وهذا القولُ ينطبقُ كذلك على ذاك الغصن الَّذي نخرَه السُّوس، وعلى هذا الجلد المَدبوغ، وفي اختصار، على كلِّ شيءٍ في الوجود، بسيطًا كان أم معقَّدًا.

٧- الأرضُ بطبقاتها تراكمُ آثار

الأرضُ ككلٍّ أثَرٌ بحدِّ ذاتها، تتذكَّرُ بمكوِّناتها الجرمَ السَّمائيَّ الَّذي انسلخَت عنه. كما أنَّ كلَّ بقعةٍ من بقاعها ذاكرةٌ تراكميَّةٌ تُعلنُ طبقاتُها المتلاحقةُ بما تحتويه من آثارٍ حقيقيَّةٍ صادقةٍ ما حلَّ بها من تأثيرات وتأثُّرات وتغيُّرات في الماضي البعيد والأبعد، وما تعاقبَ عليها من أنواع الحيوان والنَّبات.

٨- الأثرُ والتَّذكُّر في التَّطوُّر

هناك أشياءُ تتغيَّرُ كمًّا ونوعًا وتبقى على الرَّغم من تغييراتها خاضعةً لأصول فئتها. وهناك أشياءُ أخرى تخرجُها تغييراتُها عن أصول فئتها، فتنتقل بذلك من فئة إلى أخرى، ولكن من ضمن المجموعة الأمّ.

وهذا الواقعُ يتعلَّقُ بتحديد الفئة، فإذا مُزِّقتِ الورقةُ مثلاً تبقى ورقة، وأمَّا إذا أُحرِقَت، فتصبحُ رمادًا.

- **تطوُّرُ الشَّيء**

تطوُّرُ الشَّيء هو التَّغييرات الَّتي ترافقُ هذا الشَّيء من بدايته إلى نهايته. وهذا التَّطوُّرُ يتعلَّقُ بالشَّيء، وببدايته، وبنهايته، ويصحُّ التَّمثيلُ على ذلك بتطوُّر بناء بيتٍ أو تطوُّر نموِّ مدينةٍ أو تطوُّر حركةٍ جيولوجيَّةٍ كظهور جزرٍ بركانيَّةٍ أو تغيير تضاريسَ ساحليَّةٍ أو إعادة هندسة جبالٍ وسهول.

- **تطوُّرُ المجموعة**

تطوُّرُ المجموعة هو سلسلةُ التَّغييرات الكمِّيَّة والنَّوعيَّة الَّتي تُصيبُ كلَّ وحدات تلك المجموعة أو بعضَها بصفاتها أو بارتباطاتها أو بعددها أو بتمركزها.

- **تطوُّرُ الفئة البسيط**

تطوُّرُ الفئة العاديّ، أو البسيط، هو سلسلةُ التَّغييرات الَّتي تُصيبُ الصِّفات العامَّة لبعض وحدات تلك الفئة (أو كلِّها) من دون المساس بالصِّفات الجوهريَّة، على نحوٍ تبقى فيه تلك الوحدات تابعةً لتلك الفئة.

فالصِّفاتُ الجوهريَّةُ لفئة الطَّائرات، على سبيل المِثال لا الحصر، هي:

- مركبات ذات محرِّكات.
- لها أجنحة.
- تطيرُ في الهواء.

ويرتكزُ تطوُّرُها البسيطُ على الشَّكل واللَّون ونوعيَّة المحرِّكات، وعددِها، وعلى ما شابهَ ذلك.

وتحديدُ هذا التَّطوُّر نسبيٌّ إلى الفئة، وإلى صفات هذه الفئة الجوهريَّة.

- **تطوُّرُ الفئات العامّ**

تطوُّرُ الفئات العامّ هو تَوالي انبثاق فئاتٍ جديدةٍ من فئاتٍ قديمةٍ بظهور صفاتٍ جوهريَّةٍ مميّزةٍ عند كلِّ انبثاق. ويتعقَّدُ التَّطوُّرُ عندما تتفرَّعُ من كلِّ فئةٍ عدَّةُ فئات، ومن هذه وتلك فئاتٌ وفئات.

فالتَّغيُّرات في التَّطوُّر العامِّ تُصيبُ إحدى الصِّفاتِ الجوهريَّةِ (أو بعضها) الَّتي تتبعُ وَحداتِ الفئة، فلا تعودُ هذه الوحداتُ تخضعُ لأصول تلك الفئة، بل تخرجُ منها لتؤلِّفَ فئةً جديدة، مع صفاتٍ جوهريَّةٍ جديدة. وإذ تصلُ بعضُ الوحدات المتغيِّرة في فئةٍ ما إلى حالاتٍ تُصبحُ فيها متمتِّعَةً بصفاتٍ خاصَّةٍ تميِّزُها تمامًا عن الوحدات الأخرى، تنفصلُ عنها بفئةٍ جديدةٍ لها الصِّفات الجوهريَّة عَينها مُضافة إليها تلك الصِّفات الخاصَّة، فتصبحُ كلٌّ هذه، معًا، صفـــاتٍ جوهريَّةً للفئة الجديدة. ففي فئـــة

الطَّائرات الأمّ فئاتٌ صغرى متعدِّدة تميِّزُها علائقُ خاصَّة. فهناك فئة الطَّائرات الحربيَّة، وفئة الطَّائرات المدنيَّة، وفئة الطَّائرات ذات الوجهة الخاصَّة. والطَّائرات الحربيَّة عدَّة فئات: فئة الطَّائرات الهجوميَّة، وفئة الطَّائرات المُطاردة، وفئة الطَّائرات الدِّفاعيَّة، وفئة الطَّائرات التَّجسُّسيَّة. والطَّائرات المدنيَّة كذلك عدَّة فئات: فئة الطَّائرات التَّدريبيَّة، وفئة الطَّائرات السِّياحيَّة، وفئة الطَّائرات الخاصَّة، وما إلى ذلك. كما أنَّ هناك فئة الطَّائرات المروحيَّة، وفئة الطَّائرات النَّفَّاثة، وغيرها...

٦- التـَّذكُّر في التـَّطوُّر

عندما تنفصلُ فئةٌ جديدةٌ عن فئةٍ أمّ، فإنَّها تُبقي، كما رأَيْنا، على بعض صفات الفئة الأمِّ تلك، مهما كانت المرحلةُ الَّتي وصلت إليها في تطوُّرها متقدِّمةً. وإنَّ بقاء تلك الصِّفات إنَّما يمثِّلُ أثرًا لتلك الفئة الأمّ. وعليه، فهذه الصِّفات تصبحُ أداةَ تذكُّر تدلُّ على انتساب الفئة الجديدة إلى الفئة الأمِّ السَّابقة.

فالطَّائرات الحربيَّة انفصلَت بفئتها الجديدة عندما زيدت على الطَّائرة المعروفة مدافعُ رشَّاشةٌ وقنابلُ مُحرِقَة. والطَّائرات العَموديَّة انفصلَت هي الأخرى بفئتها الجديدة عندما اقتُصِرَ المِضمارُ الطَّويلُ الضَّروريُّ لاستِزياد السّرعة إلى أدنى مستواه. ولكنَّ كلاًّ من الطَّائرات الحربيَّة والطَّائرات العَموديَّة ما زال يتمتَّع (يتذكَّر) بصفات الطَّائرات الأمِّ عَينِها (أثر)، أي بمحرِّكاتها وأجنحتها وطيرانها.

والعكسُ صحيح، بمعنى أنَّه، إذا وُجدَت عدَّةُ فئاتٍ تشتركُ بصفات ذاتيَّة، فلا بدَّ أن تكونَ قد تطوَّرت من فئةٍ أمٍّ واحدة تتذكَّرُها بتلك الصِّفات. ففئة البقر وفئة الأرانب تشتركان بصفات ذاتيَّة عديدة نذكُرُ منها التَّكوينَ من لحمٍ وعضم، والسَّائلُ الدَّمويُّ الواحد، ثمَّ امتلاكها لعينَين وأذنَين وأسنان، وما إلى ذلك. فَهُما، بالتَّالي، تطوَّرَتا من سلَفٍ واحد.

٩- الأثرُ والتـَّذكُّرُ في النُّموّ

- **النُّموّ**

نموُّ الشَّيء هو سلسلةُ تغيُّراتٍ كمِّيَّةٍ ونوعيَّةٍ يظهرُ بنتيجتها الشَّيءُ صغيرًا، ثمَّ يكبرُ وتتكاثرُ أجزاؤه، وتأتيه العناصرُ الضَّروريَّةُ للنُّموِّ بتأثيراتٍ اندماجيَّةٍ من الخارج.

ونموُّ المجموعة أو الفئة يبدأ بظهورِ أوَّلِ وَحدةٍ منها، ثمَّ بتكاثر الوَحدات.

والنُّموُّ لا يقتصرُ على الأحياء، بل يشملُ كلَّ الأشياء والفئات الَّتي تخضعُ لهذا التَّحديد؛ فيُقالُ مثلاً نُموُّ المدينة عندما تتكاثرُ فيها الأبنية، ونُموُّ الاقتصاد عندما تتوسَّعُ عمليَّاتُه.

وهناك شروطٌ لحصول النُّموّ، منها وفرةُ العناصر الأساسيَّة للتَّكاثر، وتوفُّرُ العناصر الفاعلة الَّتي تنشِّطُ عمليَّةَ الدَّمج؛ كما ثمَّةَ مُفتاحُ العمليَّة أو الشَّرطُ الأوَّل. وهذه كلُّها تتعلَّقُ حتمًا بالشَّيء النَّامي، وبظروفه.

يبدأ نُموُّ الشَّيء بظهور الشَّرط الأوَّل الخاصِّ به مع العناصر الأساسيَّة التَّابعة له، ينتقلُ الشَّيءُ النَّامي بعدَها من مرحلةٍ إلى مرحلة (تغيُّرات نوعيَّة)، مارًّا بحالاتٍ شبه مستمرَّة (تغيُّرات كمِّيَّة) حتَّى التَّكامل الفرضيّ أو النِّهائيّ.

والنُّموُّ تغيير، وهو يتميَّزُ ككلِّ تغييرٍ بطرائقه ومراحله ونتائجه وسرعته ومدَّته وتعقيده وشروطه.

فلكلِّ شيءٍ ميزاتٌ لنُموِّه، ولكلِّ مجموعةٍ ميزاتٌ لنموِّها. ومن هذه الميزات ما هو عامٌّ لكلِّ الفئات الَّتي تتكوَّنُ منها المجموعة، ومنها ما هــو خاصٌّ لكلِّ فئةٍ على حِدَة.

والشَّيءُ النَّامي (أو الفئة) يُظهرُ (يتذكَّر) العناصرَ الأساسيَّةَ الَّتي دخلَت في تكوينه، إذ هي أصبحَت فيه آثارًا؛ كما يتضمَّنُ (يتذكَّر) نتائجَ التَّغيُّرات الَّتي خضعَ لها.

٢- نُموُّ الكائن الحَيّ

يختلفُ نموُّ الحَيِّ عن نُموِّ الجماد بطريقة النُّموِّ الَّتي تكونُ أكثرَ تعقيدًا. فالحَيُّ يتمتَّعُ بالقدرة على انتقاء العناصر الأساسيَّة واحتوائها، ثمَّ بتحويلها عناصرَ ضروريَّةً لنُموِّه الذَّاتيّ، وعنده القدرة أيضًا على الحركة التّلقائيَّة الَّتي تسمحُ له أن يأتيَ بالعناصر الضَّروريَّة لنُموِّه، بينما غيرُ الحَيِّ ينتظرُ أن تأتيَه هذه العناصر من قِبَل أشياءَ مختلِفةٍ ناشِطَةٍ في محيطه.

والمعروفُ أنَّ نُموَّ الحَيِّ يبدأُ من خلية واحدة ملقَّحة تُعطي بتكاثرها الإنسانَ أو الحيوانَ التَّابعَ لها.

وأوَّلُ ما يتبادرُ إلى الذِّهن في هذا النُّموِّ السُّؤالُ الآتي:

"كيف ينتجُ من خليةٍ مُتناهيةٍ في الصِّغَر إنسانٌ أو حيوانٌ كاملٌ هو من التَّعقيد بمكان؟".

وثمَّةَ أسئلةٌ أخرى تُطرحَ بخاصَّةٍ بعد الاطِّلاع على الأشكال الغريبة العجيبة الَّتي يتَّخذُها الإنسانُ أو الحيوانُ في نموِّه الدَّاخليّ (أنظرِ الأشكالَ المَعروضة)، وبخاصَّةٍ السُّؤالَ الآتي: "لماذا كان النُّموُّ على هذا النَّحو؟ وما سرُّ هذه الأشكال؟".

وأمَّا الجوابُ فقدَّمَته الدِّراساتُ المُضنِيَةُ الَّتي جرَت في هذا السِّياق، فهي دلَّت إلى أنَّ الخليةَ عالِمَةٌ بالدَّور الَّذي تقومُ به؛ فهي ذات معرفة، وعليه، صاحبةُ ذاكرة، أي أنَّها تحملُ آثارًا بشكل أشراكٍ متواصلةٍ تكونُ نهايةُ كلِّ واحدٍ منها مُفتاحًا للشّرك الَّذي يليه؛ وما التَّلقيحُ سوى مفتاحِ شركها الأوَّل.

البابُ الثَّاني
في الإنسان

في البحث عن الحرِّيَّة، كان لا بدَّ لنا من أن نتكلَّمَ، ولو ببعض الإستفاضات، على ذلك الكائنِ الَّذي تطوّرَ إلى حدٍّ وصلَ معه إلى تبوُّءِ عرشِ المخلوقاتِ الحيَّة، وباتَ يُزاحمُ خالقَه على استحداثِ كائناتٍ جديدة.

ولِفهم قدراتِ الإنسان الهائلة، قمنا بجولةٍ داخلَ عقلِه، تعَرَّفْنا من خلالِها على ميكانيكيَّةِ عملِ الأعضاءِ الفَّاعِلة فيه. فكان أن أتى:

- في الفصلِ السَّادس: بحثٌ في الإنسانِ المفكِّرِ والواعي.
- في الفصلِ السَّابع: بحثٌ في الإنسانِ الغريزيّ.
- وفي الفصلِ الثَّامن: بحثٌ في بعضِ أنشطةِ العقلِ والغريزة.

الفصلُ السَّادس
الإنسانُ المُفكِّرُ والواعي

١- حواسُّ الإنسان

التَّأثيراتُ الخارجيَّةُ (خارجَ جسمِ الإنسان) متنوِّعةٌ ومتميِّزة، وهي تصلُ الجسمَ الإنسانيَّ من كلِّ نواحيه. يصلُ بعضُها الخلايا اللاَّقطةَ مباشرةً، كتأثيراتِ الحرارة، ويصلُ بعضُها الآخرُ على نحوٍ غير مباشر عبرَ محوِّلات عضويَّةٍ خاصَّة، كتأثيراتِ الضَّوء الَّتي تدخلُ عدسةَ العينِ قبلَ أن تصلَ شبكتَها، أو كتأثيراتِ الصَّوتِ الَّتي تدقُّ طبلةَ الأذنِ قبلَ أن تدخلَ الأذنَ الدَّاخليَّةَ حيثُ الأعصابُ اللاَّقطة.

وعندما تلتقطُ الخلايا التَّأثيراتِ الواردةَ تتأثَّرُ وتصدرُ عنها شحنات كهربائيَّة معقَّدة بطبيعتها وقوَّتها ونوعيَّتها. وتنتقلُ هذه الشّحناتُ إلى الدِّماغ مباشرةً أو إلى الحبل الشَّوكيِّ عن طريق خلايا ناقلةٍ تؤلِّفُ أليافًا عصبيَّةً، ومنه إلى الدِّماغ.

والحاسَّةُ هي جهازٌ يتألَّفُ من عضوٍ معيَّنٍ فيه خلايا لاقطة لتأثيراتٍ خاصَّةٍ ومن خلايا ناقلةٍ لتلك التَّأثيرات. وبذلك تُصبحُ الحاسَّةُ واسطةَ نقلٍ تربطُ الدِّماغَ بمحيطه الخارجيّ.

وتختلفُ الحواسُّ باختلافِ التَّأثيراتِ الواردةِ إليها. وقد تطوَّرت لدى الإنسانِ خمسُ حواسٍ معروفة:

- حاسَّةُ النَّظرِ المتعلِّقةُ بتأثيراتِ الضَّوء، وعضوُها العين.
- حاسَّةُ السَّمْعِ المتعلِّقةُ بذبذاتِ الهواء (الصَّوت)، وعضوُها الأذن.
- حاسَّةُ الشَّمِّ المتعلِّقةُ بالرَّائحة، وهي جُزَيْئاتُ الموادِّ المُنتشرَةِ في الهواء، وعضوُها الأنف.
- حاسَّةُ الذَّوق المتعلِّقةُ بتأثيرات الموادِّ الكيماويَّة، وعضوُها الأساسيُّ اللِّسان.

– حاسَّةُ اللَّمسِ المتعلِّقةُ بتأثيراتِ الخصائص الفيزيائيِّة للأشياء (الحرارة – السُّيولة – الصَّلابة...)، وعضوُها الجلد.

كما يمكنُ أنْ توجَدَ عند الإنسانِ حواسّ أخرى ما زالتْ في أوائل تطوُّرِها، أو حواسّ وصلتْ إلى نهايتها لعدم الحاجة إليها، ومنها، على نحوٍ خاصٍّ الحاسَّةُ السَّادسةُ الَّتي سيُجرى بحثُها في فصلٍ لاحق.

٢- ألدِّماغ

ألدِّماغُ هو كتلةٌ لحميَّةٌ مؤلَّفةٌ من خلايا متخصِّصة، يحتضِنُها الرَّأسُ ضمنَ الجُمجُمة ذي السَّماكة الملحوظة الَّتي تطوَّرتْ بهذا الشَّكل لحمايتِه من الأذى كونُه الجزءُ الأساسيُّ للإنسان. والدِّماغُ يتألَّفُ من مركزٍ وذاكرةٍ إدراكيَّةٍ واعيةٍ وذاكرةٍ غريزيَّة.

٣- ألذَّاكِرةُ الإدراكيَّة

ألذَّاكِرةُ الإدراكيَّةُ هي الجُزءُ الأكبرُ من الدِّماغ (المُخّ)، وهي شبهُ مقسومةٍ إلى قسمَين، وتتألَّفُ من ملايين الخلايا المتخصِّصة الَّتي تتميَّزُ عن غيرها من الخلايا بذَيلٍ طويلٍ وبعضِ الاستيطالاتِ والنّتوءاتِ الَّتي تؤلِّفُ ما نسمِّيه بالشُّعَيْرات. وهذه الخلايا، ككُلِّ الخلايا الحيَّة، تتهيَّجُ عندما يصلُها تأثيرٌ معيَّن، وتبقى في هياجِها مدَّةً تتفاوتُ في قصَرِها أو في طولِها بحسبِ قوَّةِ التَّأثير. عندها يتغيَّرُ محتواها الكيميائيُّ وتتغيَّرُ شُعَيْراتُها باتِّجاهاتِها أو باستطالتِها، وعندما تخبو، تعودُ إلى حالتها الطَّبيعيَّة إلا إذا تمَّ تثبيتُ تغييراتِها من قِبَلِ المركز (أُنظرْ المركزَ في ما يلي) فتبقى عندها على تلك التَّغييرات.

ولتسهيلِ فهمِ ما يجري من أمورٍ معقَّدةٍ داخلَ الذَّاكرة، سنكتفي بالإشارة إلى أنَّ كلَّ تأثيرٍ يطرُقُ بابَ الحواسِّ، يطرُقُ تأثُّرُه الخليَّةَ الذَّاكريَّةَ عينَها.

٤- ألمركز

ألمركزُ هو جُزءٌ صغيرٌ جدًّا من الدِّماغ، موجودٌ في أسفلِ الرَّأسِ من الجهة الخلفيَّة. وهو محـــوَرُ الإنسان، بمعنى أنَّه هو كلُّ الإنسانِ وما تبقَّى من الدِّماغ، وباقي الجسم ليس إلاَّ مجموعـــةَ أدواتٍ تعملُ لحمايتِه وتغذيتِه وتواصُلِه بالعالـــم الخارجيّ.

يتبلَّغُ المركزُ الشِّحناتِ الكهربائيَّةَ من الخلايا الذَّاكريَّةِ المتهيِّجَة أوَّلاً بأوَّل، بحَسَب وصولِها الزَّمنيِّ، وذلك عن طريق عصبٍ وحيدٍ يربطُه بالذَّاكرةِ الإدراكيَّةِ، وبسرعةٍ فائقة. ثمَّ يعمَلُ على تثبيتِ هذه الشِّحناتِ والتَّأثيراتِ المتعلِّقةِ بها في تلك الخلايا، وذلك بضخِّ موادَّ خاصَّةٍ تفرزُها إحدى الغددُ بأمرٍ منه. أيْ أنَّ الخلايا المتهيِّجةَ باستطالات شعَيْراتها وبتغيير اتِّجاهاتها، والَّتي يتمُّ الاتِّصالُ في ما بينها وبين المركز، تتثبَّتُ فيها تلك التَّغييراتُ عن طريق إفرازات الغدَّة المعنيَّة، ولا تمكنُها بعدَ ذلك العودةُ إلى حالتِها الأولى.

وأمَّا الخلايا الَّتي تتهيَّجُ ويخبو اهتياجُها قبلَ أن يتمَّ الاتِّصالُ في ما بينها وبين المركز، فلا تُصيبُها الإفرازاتُ، وبالتَّالي، لا تتثبَّتُ فيها التَّأثيراتُ فتعود إلى حالتها الأولى.

٥- ألسَّلاسلُ الذَّاكريَّة

الخلايا المتأثِّرَةُ والمثبَّتةُ من قبلِ المركزِ في الوقتِ الواحدِ تتلامسُ شعَيْراتُها باستطالاتِها المستحدثَة، أو بتغييرِ اتِّجاهاتها، فتؤلِّفُ طريقَ انتشارٍ لمجموعةِ التَّأثيراتِ الوافدةِ والمتعلِّقَةِ بإحداثيَّةٍ معيَّنَة. وهذه الطَّريقُ تُشكِّلُ ما نُطلِقُ عليه سلسلةً ذاكريَّةً أو سلسلةً تذكُّريَّة.

فإذا رأيْتُ، في أحدِ الأيَّام، سيَّارةً حمراءَ يَصدحُ مِذياعُها بأغنيةٍ للسَّيِّدةِ فيروز، لتثبّتَتْ في ذاكرتي تأثيراتُ السَّيَّارةِ واللَّونِ الأحمرِ والمذياعِ والصَّوتِ الصَّادحِ وأغنيةِ السَّيِّدةِ فيروز والسَّيِّدة فيروز، كلٌّ في خليَّةٍ، ولألَّفَتْ كلُّ هذه الخلايا سلسلةً ذاكريَّة.

والسِّلسلةُ لا تحتوي على كلِّ الخلايا الَّتي تهيَّجَتْ في الوقتِ ذاتِه، إذ قد لا يستطيعُ المركزُ الاتِّصالَ بالكثيرِ منها، وتثبيتَ التَّأثيراتِ فيها، قبلَ أن تخبوَ، على الرَّغمِ من سرعتِه الفائقة.

والتَّأثيرُ الواحدُ، المتعلِّقُ بخاصيَّةٍ معيَّنةٍ، يطرُقُ دائمًا الخليَّة عينَها. وقد يحتوي حدثان الخاصيَّةَ ذاتها، فيشكِّلان في الذَّاكرةِ سلسلتَين متقاطعتَين عن طريق الخليَّةِ التَّابعةِ تلك الخاصيَّة.

فإذا زرتُ، في يومٍ آخرَ من أيَّامِ الصَّيفِ اللاَّهبة، صديقًا كان يستمعُ إلى أغنيةِ السَّيِّدةِ فيروز عينِها، لانطبعَتْ في ذاكرتي سلسلةٌ جديدة، ولتقاطَعتْ مع السِّلسلةِ السَّابقةِ المتعلِّقةِ بالسَّيَّارةِ الحمراءِ بخليَّةِ أغنيةِ السَّيِّدةِ فيروز. والقتيلُ الَّذي سقطَ، وسالتْ دماؤه في مشهدٍ من فيلمٍ سينمائيٍّ كنتُ أشاهدُه على التِّلفازِ، يشكِّلُ بدورِه سلسلةً ثالثةً تتقاطعُ مع الأولى بخليَّةِ الاحمرار.

٦- ألذَّاكرةُ الغريزيَّة

تتركَّزُ الذَّاكرةُ الغريزيَّةُ في المُخَيخ، وهي مؤلَّفةٌ من خلايا متأثِّرةٍ ومثبَّتةٍ عند الولادة. وهي، أيْ الذَّاكرة، مسؤولةٌ عن ردَّاتِ فعلِ الإنسانِ غيرِ الإدراكيَّةِ الَّتي تؤمِّنُ له الحمايةَ والاستمرارَ في حالاتٍ خاصَّة. والمعروفُ أنَّ هذه الذَّاكرةَ غيرُ متَّصلَةٍ بالمركز، ممَّا يجعلُ ردَّاتِ فعلِها لاواعية. ولكن، قد تتَّصلُ به بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ عن طريق التَّعلُّمِ كما سنرى لاحقًا.

٧- ألوعيُ واللاَّوعي

ألوعيُ هو الحالةُ الَّتي يكونُ فيها الاتِّصالُ تامًّا في ما بين جميعِ الخلايا اللاَّقطةِ والمنبِّهة، والذَّاكرة، ثمَّ بين الذَّاكرةِ والمركز، أي الحالةُ الَّتي يمكنُ أن ينتقلَ فيها أيُّ تأثيرٍ خارجيٍّ إلى المركزِ عبرَ الحواسِّ والذَّاكرة.

ويُفقَدُ الوعيُ جزئيًّا عندما تتعطَّلُ بعضُ الخلايا اللاَّقطةُ (راحة تامَّة – إزعاج – تلف – تخدير)، أو عندما تتعطَّلُ الخلايا الموصِلةُ بين الحواسِّ من جهةٍ والذَّاكرةِ والمركزِ من جهةٍ ثانية، أو عندما تُتلَفُ بعضُ خلايا الذَّاكرة.

ويُفقَدُ الوعيُ كلِّيًّا عند انقطاعِ الاتِّصالِ بالمركز، وذلك إمَّا لاسترخاءِ عصبِ الاتِّصالِ الوحيدِ بالمركزِ (تخدير – تلَف)، أو عند استراحةِ المركزِ (النَّوم)، وإمَّا بشلِّ نشاطِ الأعصابِ الموصِلةِ (تخدير كلِّيّ)، أو لأيِّ سببٍ آخرَ مشابِه. وعند افتقادِ الوعي تحصلُ حالةُ اللاَّوعي. أيْ أنَّ اللاَّوعيَ هي الحالةُ الَّتي يكونُ فيها الاتِّصالُ مقطوعًا بين المركزِ وباقي أقسامِ الدِّماغ.

٨- ألتـَّذكُّر

ألتَّذكُّرُ، بالنِّسبةِ إلى خليَّةٍ مطبوعةٍ سابقًا بتأثيرٍ ما، هو إعادةُ تهييجِ هذه الخليَّةِ بإثارتِها مجدَّدًا من قبَلِ خليَّةٍ أخرى تؤلِّفُ معها جزءًا من سلسلةٍ ذاكريَّة.

والتَّذكُّرُ، بالنِّسبةِ إلى وصلةٍ ذاكريَّة، هو إعادةُ تهييجِ جميع خلايا هذه الوصلةِ لمجرَّدِ إثارةِ إحدى خلاياها الَّتي يُقالُ لها مفتاحُ التَّذكُّر. ففي المثلِ السَّابق، رأيْنا كيف ارتبطَتْ فكرةُ السَّيَّارةِ الحمراءِ بفكرةِ أغنيةِ فيروز، فإذا حدثَ ورأيْنا شيئًا أحمرَ (مفتاحُ الشَّرك) لتأثَّرتْ خليَّةُ الاحمرار، ولأثَّرَتْ معها خليَّةَ السَّيَّارةِ الحمراء، وبعدها خليَّةَ أغنيةِ السَّيِّدةِ فيروز.

والمعلومُ أنَّ مفتاحَ تذكُّرٍ معيَّنٍ لا يُطلِقُ دائمًا السِّلسلةَ عينَها. فالذَّاكرةُ دائمةُ التَّجدُّدِ، إنْ بخلاياها المتأثِّرةِ، وإنْ بوصلاتِها، وإنْ بعُمق الآثارِ الَّتي طبعَتْ الخلايا. وبالتَّالي، فما يُقرِّرُ سلسلةً تذكُّريَّةً هي الخلايا الأكثرُ حساسيَّةً لهيجانِها، والأعمقُ أثرًا، قُلْ الخلايا المميَّزَة.

٩ - ألنِّسيان

ألنِّسيانُ هو سقوطُ إحدى الخلايا (أو خلايا عدَّة) من السَّلاسلِ التَّذكُّريَّةِ لأسبابٍ مختلفةٍ، نوردُ منها الحالاتِ الآتية:

- عندَ زوالِ أو اضمحلالِ التَّأثيراتِ من تلك الخليَّة، بعاملِ الوقت، وذلك لعدمِ إثارتِها مجدَّدًا.
- عندَ انقطاعِ الاتِّصالِ بين تلك الخليَّةِ والخلايا الأخرى الَّتي تؤلِّفُ سلسلةً تذكُّريَّة، لانشغالِ تلك الخلايا في سلاسلَ ذاكريِّةٍ أخرى جانبيَّة.
- عندَ إصابةِ هذه الخليَّةِ بالعجز، إذ تُصبحُ غيرَ قادرةٍ على التَّهيُّجِ على نحوٍ كافٍ.
- عندَ انشغالِ المركزِ بخلايا أخرى أكثرَ تهيُّجًا.
- لأيِّ سببٍ آخرَ، كتخديرٍ أو استرخاء.

وعندَ النِّسيانِ، يُفتقَدُ التَّذكُّرُ الصَّحيحُ المتعلِّقُ بالسِّلسلةِ الَّتي تؤلِّفُ الخلايا السَّاقطةُ جزءًا منها.

١٠- ألمعرفة

أنْ يعرفَ الإنسانُ عن شيءٍ، هو أنْ يكونَ قد تأثَّرَ به سابقًا، وأنْ يكونَ هذا الشَّيءُ قد تركَ أثرًا ثابتًا في إحدى خلايا الذَّاكرة، أو في أكثرَ من خليَّةٍ واحدة.

وتصبحُ معرفةُ إنسانٍ لشيءٍ ما احتواءُ ذاكرةِ ذلك الإنسانِ سلاسلَ ذاكريَّةً متعلِّقةً بذلك الشَّيء.

وتكونُ المعرفةُ بالشَّيءِ أوسعَ كلَّما كثُرَتِ السَّلاسلُ المتعلِّقَةُ به؛ وبالتَّالي، كلَّما تشعَّبتِ الخلايا وتلاقتْ شُعَيْراتُها. وتكونُ المعرفةُ أعمقَ كلَّما عمِقَتِ الآثارُ في تلك الخلايا، أيْ كلَّما كثُرَتْ واستطالَتْ تشعُّباتُها.

من ذلك، نرى أنَّ زيادةَ المعرفةِ وتعميقِها يتمَّان عن طريق التَّعلُّم. وتُصبحُ المعرفةُ متعلِّقةً به، وتكونُ صحيحةً أو غيرَ صحيحةٍ تِبعًا له.

الفصلُ السَّابع
الغريزةُ عند الإنسان

١- ألغريزة

ألغريزةُ عندَ الإنسان، وقد رأيناها سابقًا تحت اسم الذَّاكرةِ الغريزيَّة، لا تكونُ أصلاً متَّصلةً بالعقل المُدرِك، لذا فنشاطُها يبقى غيرَ واعٍ. وهي تحتوي على آثارٍ تنتقلُ بالتَّوالدِ من السَّلَفِ إلى الخَلَف. فالطفلُ يولَدُ ولدَيه قدرةٌ عظيمةٌ على الرَّضاعة. وهو يلجأُ عندَ الجوع والألم إلى الصُّراخ. ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الرَّضاعةَ والصُّراخَ هما تصرُّفان غريزيَّان يرتديان لدى الطِّفل طابِعًا مصيريًّا لكَي يقوى على الاستمرار.
فالغريزةُ هي مركزُ جميع ردود الفِعل العفويَّة والتَّصرُّفات غير الواعية الَّتي تؤمِّنُ الحمايةَ والاستمرارَ للفرد.

٢- من عوامل الغريزة: الحاسَّةُ السَّادسة

إنَّ الإنسانَ يعملُ كمركزٍ إذاعيٍّ وجهازِ راديو في آنٍ واحد. فهو يُصدِرُ تموُّجاتٍ شبيهةً بتلك الَّتي يلتقطُها جهازُ الرَّاديو، بخاصَّةٍ عندما يكونُ عقلُه في حالةِ تفكيرٍ عميقٍ ومركَّز. كما أنَّه، أي الإنسان، قادرٌ على التقاطِ تلك التَّموُّجات عندما يكونُ فكرُه في حالة استرخاء (نوم أو راحة).

وإذا افترضْنا أنَّ الذَّاكرةَ الغريزيَّةَ هي مسؤولةٌ عن ذلك الإرسال وذلك الالتقاط، لَفَهِمْنا لمَ تبقى تلك التموُّجاتُ غيرَ واعية.
والحاسَّةُ السَّادسةُ تصبحُ ذلك الجهاز، أي الغريزة، المسؤولَ عن التقاط تلك التَّموُّجات الفكريَّة بخاصَّة، وشبيهاتِها الصَّادرة عن كلِّ شيءٍ متغيِّر بعامَّة.

نُشيرُ، أخيرًا، إلى أنَّ هذه التَّموُّجات، ككلِّ صفةٍ عند الإنسان، تميِّزُ الفردَ الَّذي أصدرَها كما الفكرةَ الَّتي تمرُّ في خاطره.

يبقى أن نحدِّدَ آليَّةَ تحوُّل هذه التَّموُّجات تأثيراتٍ واعيةً. فعند أوَّل تأثيرٍ لها، تُرافقُ هذه التَّموُّجات التَّأثيرات الواعية الَّتي تلتقطُها الحواسُّ الخمسُ فتؤثِّرُ في خلايا الذّاكرةِ الغريزيَّة في الوقت عَينه الَّذي تؤثِّرُ فيه التَّأثيراتُ الأخرى خلايا الذَّاكرةِ الواعية. فيحصُلُ ارتباطٌ بين تلك الخلايا كلِّها ويتمُّ الاتِّصالُ بين الذَّاكرتَين، حتَّى إذا ما تهيَّجَتْ خلايا إحداها انْتقلَ التَّأثيرُ إلى خلايا ثانيتِها. وإذا كان هذا الانتقالُ من الذَّاكرةِ الغريزيَّةِ الَّتي التقطَتْ إحدى التَّموُّجات باتِّجاه الذَّاكرة الواعية انْتقلَ تأثيرُ التّموُّجاتِ اللاَّوعي إلى تأثيرٍ واعٍ يطرُقُ بابَ المركز.

فعندما نتعرَّفُ إلى فرد، تأخذُ التَّأثيراتُ البصريَّةُ والسَّمْعيَّةُ طرُقَها إلى الذَّاكرةِ الواعيةِ لتطبعَ بخصائصِها بعضَ خلاياها، بينما تدخلُ بعضُ التَّموُّجاتِ الذَّاكرةَ الغريزيَّةَ لتؤثِّرَ بعض خلايا هذه الذَّاكرة. فيتمُّ الاتِّصالُ التَّزامنيُّ بين كلِّ هذه الخلايا، حتَّى إذ ما تأثَّرَتْ الخلايا الغريزيَّةُ مجدَّدًا هيَّجَت الخلايا الأخرى المتَّصلةَ بها، وتحوَّلتْ تأثيراتٍ واعيةً تُعطي صورةَ ذلك الفردِ كما توحي بالفكرة الَّتي عملَ عليها.

والحاسَّةُ السَّادسةُ، كباقي الحواسّ، دائمةُ العمل لا تهدأ، إنَّما تختلفُ عنها في أنَّها لا تطرُقُ بابَ المركزِ، وتبقى، بالتَّالي، غيرَ واعية؛ وعليه، لا يمكنُ الشُّعورُ بها كلَّما كان هذا المركزُ بنشاطه. فهيجانُ خلايا الذَّاكرةِ الإدراكيَّةِ يبقى أقوى من تأثيراتِ الذَّاكرةِ الغريزيَّة. ولكن، عندما يكونُ المركزُ في حالةِ استرخاءٍ يخفُّ هيجانُ هذه الخلايا وتصبحُ الذَّاكرةُ الغريزيَّةُ قادرةً على نقلِ بعض تأثُّراتها إلى الذَّاكرةِ الإدراكيَّة.

٣- نشاطُ الذَّاكرة الغريزيَّة

*** ألفكرُ شبهُ الواعي**

ألفكرُ شبهُ الواعي هو الحالةُ الَّتي يتخلَّى فيها المركزُ عن دورِه لحسابِ الذَّاكرةِ الغريزيَّة، أو على الأقلّ، يتقاسمُ فيه هذا الدَّورَ مع تلك الذَّاكرة.

ففي بعضِ الحالاتِ الحرجةِ الَّتي تتطلَّبُ سرعةً في أخذِ القرار، يتعطَّلُ عملُ المركزِ عفويًّا، فتقومُ الذَّاكرةُ الغريزيَّةُ بدوره. أنْ يعرفَ إنسانٌ، مثلاً، أنَّ هناك خطرًا يتربَّصُه، هو دخولُ المركزِ على الخطِّ ليتبيَّنَ المعطياتِ المحيطةَ به، ثمَّ ليأخُذَ قرارَه. وقد يتخلَّلُ هذا العملَ بعضُ التَّردُّد. وهذا ما يأخذُ وقتًا ثمينًا. عندها يتوقَّفُ التَّفكيرُ الواعي عفويًّا، وتقومُ الذَّاكرةُ الغريزيَّةُ بأخذِ القرارِ الملائم. فهي لا تُعطي للأحاسيسِ انتباهًا، وردُّ فعلِها سريع.

يستبسِلُ بعضُ الجنودِ الَّذين يُنعَتون بالجبناء، في الحرب، عندما يُقتَلُ أحدُ زملائِهم بالقرب منهم، أو، عندما يتراءى لهم شبحُ الموت.

*** "ألنوم المغناطيسيّ": دورُ الذَّاكرةِ الغريزيَّةِ عند النَّوم**

ألنَّومُ هو حاجةٌ طبيعيَّةٌ لراحةِ الجسدِ والنَّفس. وعنده ينقطعُ الاتِّصالُ في ما بين المركزِ والذَّاكرةِ الإدراكيَّة، فلا يعودُ يتأثَّرُ في تفاعلاتِها. وتتولَّى الذَّاكرةُ الغريزيَّةُ مهامَّه، وتصبحُ تصرُّفاتُه لاواعية. فالنَّائمُ الَّذي يُبدي ردودَ فعلٍ حركيَّةٍ أو كلاميَّةٍ أو غيرِها، إنَّما يقومُ بذلك عن طريق الذَّاكرةِ الغريزيَّة.

و"النَّومُ" المغناطيسيُّ هو حالةُ استرخاءٍ جسديٍّ مصطنَعٍ شبيهةٌ بحالة النَّوم الطَّبيعيَّة، إنَّما تقومُ على شلِّ نشاط المركز بإشغاله بشريحة معيَّنة من الذَّاكرة الإدراكيَّة، وعادةً ما تكونُ متعلِّقةً بالماضي البعيد. فلا يعودُ بإمكانِه الاتِّصالُ بباقي الشَّرائِح.

وتتولَّى الذَّاكرةُ الغريزيَّةُ مسؤوليَّةَ هذه الفئة. فيبقى بذلك "النَّائِمُ" على اتِّصالٍ بالعالم الخارجيّ، ويتفاعلُ معه كلاميًّا وحركيًّا، ولكن من دون وعيٍ منه.

*** عندما تُصبحُ العادةُ غريزةً**

أنْ يعتادَ الإنسانُ على أمرٍ معيَّنٍ هو أنْ يقومَ بهذا الأمرِ مرَّاتٍ عديدة، ولزمنٍ ليس بقصير. والعادةُ تصبحُ هذا "الأمرَ" الَّذي يقومُ به الإنسانُ مرَّاتٍ عديدة. عند العادةِ لا يعودُ الفكرُ يُولي "الأمرَ" اهتمامًا. فتُمسي العادةُ وكأنَّها في عُهدة الذَّاكرة الغريزيَّة.
والإنسانُ الَّذي اعتادَ القيامَ بأمرٍ ما، يُصبح، مع هذا الأمر بالذَّات، كآلةٍ تحرِّكُها الغريزةُ من دون وعي، ولَقامَ بما عليه بمهارةٍ تامَّة. حتَّى إذا ما طرأ واقعٌ جديدٌ في أثناءِ القيام بهذا الأمر، تعطَّلتِ الآلةُ، وعادَ "الأمرُ" مؤقَّتًا إلى عُهدة الفِكر.
فبعضُ ربَّاتِ البيوت، مثلاً، لا يُجِدْنَ القيامَ بترتيب بيوتهنَّ إلاَّ إذا كُنَّ وحيدات، وبعضُ الأدباء المعاصرين لا تأتيهم قريحةُ الإنتاج إلاَّ واللَّفافةُ في أيْديهم.

*** ألغرابة**

يتخلَّلُ التَّفكيرَ الواعي، عند الإنسان، شعورٌ وأحاسيسُ تميِّزُه عن باقي الكائنات الحيَّة. وهذه الأحاسيسُ تُدخِلُ القلقَ والخوفَ في نفسِه (أي أنَّها تُعرْقِلُ التَّفكير)، ممَّا يَحدوه إلى التَّردُّد، فالعُدول عن القيام بالأمر الَّذي يواجهُه، أو على أقلِّ تقدير، إلى إعاقة أخذ القرار في شأنه. فتتشتَّتُ بذلك قواه العقليَّةُ والجسديَّة. ولكن، في الحالاتِ الدَّقيقةِ الَّتي يَعتريها خوفٌ كبير، أو قلقٌ على المصير، تجتمعُ الغريزةُ إلى المركزِ لأخذِ القرارِ الاستثنائيّ، وهذا الاجتماعُ يُولِّدُ لدى الإنسان قدرةً على القيام بأمورٍ تُنعَتُ بالغرابة. ويُحكى أنَّ أُمًّا استطاعَت رفعَ سيَّارةٍ كادَت أنْ تسحقَ وليدَها. فهل كانَ بإمكانِها القيامُ بذلك في ظروفٍ عاديَّة؟

الفصلُ الثـَّامن
بعضُ أنشِطَة العَقل والغريزة

١- ألحُلْم

ألحُلْمُ هو مجموعةُ صُوَر عقليَّة ناتجة من إعادةِ تأثُّرٍ غيرِ واعيةٍ لسلسلةٍ تذكُّريَّة، أو لمجموعةِ خلايا ذاكريَّة، في أثناء النَّوم، أو في أثناء أيَّ استراحةٍ أخرى للمركز، ينتقلُ خلالَه التَّأثيرُ من خليَّةٍ إلى أخرى تبعًا للطَّريق الأسهل. والطَّريقُ الأسهلُ تُحَتِّمُه الخلايا الأكثرُ عمقًا في الأثر، أو الأحدثُ هيجانًا.

والحُلْمُ، بهذا، يصبحُ نوعًا من التَّذكُّرِ أو التَّفكيرِ غيرِ الواعي.

٢- ألتـَّخيُّل

ألتَّخيُّلُ هو نشاطُ الفكر (تفكير) الَّذي يُعطي صوَرًا لا تتطابقُ جزئيًّا أو كلِّيًّا مع الواقع الَّذي كان سببًا لها أو مع أيِّ واقعٍ على الإطلاق.

وأسبابُ التَّخيُّلِ عديدةٌ، نذكرُ منها الآتي:

١"- عدمُ تثبيت الصُّورة الفكريَّة أصلاً على نحوٍ مُطابقٍ للواقع لتشويهٍ في هذا الواقع، أو لتشويهٍ أو عجزٍ في عمل الفكر، أو لِخللٍ في عمل الحواسّ. ويُقالُ للتَّخيُّل في هذه الحال إنَّ تخيُّلٌ غيرُ مقصود.

٢"- كونُ الفكر في حالة اللاَّوعي على الرَّغم من أنَّ الصُّورةَ الفكريَّةَ متطابقةٌ أصلاً مع الواقع، ولكن تتقاطعُ السِّلسلةُ الفكريَّةُ التَّابعةُ لهذه الصُّورة مع سلاسلَ فكريَّةٍ أخرى على نحوٍ طبيعيّ. فيُضفي هذا التَّقاطعُ بعضَ اللَّقطات الخاطئة أو الدَّخيلة على الصُّورة الصَّحيحة فيشوِّهُها. ويُقالُ عن هذا التخيُّلِ تخيُّلٌ غيرُ واعٍ.

٣"- كونُ الصُّورة الفكريَّة متطابقةً مع الواقع، مع كون الفكر في حالة وعيٍ مطلَقَة، إنَّما تُصاحبُ هذه الحالةَ خلايا فكريَّةٌ في حالة تهيُّج شديد. فيتمُّ الاتِّصالُ في ما بين هذه الخلايا وخلايا الصُّورة الصَّحيحة فتتشوَّهُ هذه بسبب التَّقاطُع.
ويُقالُ عندئذٍ عن هذا التخيُّل مقصوداً أو واعيًا، إذ يكونُ الفكرُ قد تعمَّدَ تهييجَ هذه الخلايا لإضفاء التخيُّل المنشود.

٣- ألتـَّعبيرُ عن الصُّوَر الفكريَّة

ألإنسانُ، بطَبعه، يحبُّ مشاركةَ النَّاس بصوَره العقليَّة. ولنقلِها إلى هذا الغَير، عليه أن يُظهرَها على نحوٍ مَحسوس، أي بتأثيراتٍ قادرةٍ على طرق أبواب الحواسّ. والتَّعبيرُ هو نقلُ هذه الصُّوَر من الفكر إلى المحسوس.

وللإنسان طرقٌ مختلفةٌ للتَّعبير عن صوَره العقليَّة:

* فقد يتكلَّمُ ويكونُ كلامُه تعبيرًا عن تلك الصُّور.

* وقد يقومُ ببعض الحركات والإشارات والإيماءات، وتكونُ هذه نوعًا آخرَ من التَّعبير.

* وقد يقومُ بخطِّ رموز (كتابة أو صوَر)، وهذه تؤلِّفُ نوعًا آخرَ جديدًا من التَّعبير.

ونشيرُ إلى أنَّ هذه الأشكالَ في التَّعبير هي أشكالٌ مقصودةٌ، أي أنَّ صاحبَها يُريدُ ويرغبُ مشاركةَ الغَير بالصُّوَر المُعبَّر عنها، إذ إنَّ هناك مشاركةً غيرَ مقصودة بل مفروضة فرضًا على صاحبها، ألا وهي الحاسَّةُ السَّادسة.

٤- ألوَحي

ألوَحيُ هو التقاطُ فكر الإنسان تأثيرًا مبهَمًا غير معروف المصدر، يعكسُ ردَّ فعـــلٍ

على واقع معيَّن يمثِّلُ، لذلك الإنسان، قلقًا. وتكونُ نتيجةُ هذا التَّأثير شرودَ الفكر بصورَ عقليَّة قد تؤلِّفُ حلاًّ عفويًّا لقلقه. ونقولُ إنَّ هذا الواقعَ هو الَّذي حفَّزَ الوَحي. والوَحيُ، على نحوٍ آخرَ، يصبحُ إعادةَ توجيه سلسلة فكريَّة قائمة في فكر الإنسان، وذلك بتأثير خارجيٍّ أو داخليٍّ مجهول المصدر.

فإذا واجهَتْني مشكلةٌ صَعُبَ عليَّ حلُّها، وقد صرفْتُ الوقتَ الطَّويلَ وأنا أحاولُ التَّعاملَ معها، من دون الوصول إلى نتيجة مُرْضِيَة، ثمَّ، وبلحظةٍ قصيرة، وبطريقةٍ غير منتظَرَة، طرأتْ على لبِّي فكرةٌ قد تمثِّلُ الحلَّ المَنشود، أقولُ إنَّ وحيًا هبطَ عليّ.

والوَحيُ يُلهمُ الشُّعراءَ والفنَّانين، فتأتيهم الأفكارُ المناسبةُ لتُحدِّدَ لهم مواضيعَ قصائدهم ولوحاتهم وموسيقاهم، من دون عَناء، وأمَّا الحافزُ فيكونُ واقعَ الشَّاعر أو الفنَّان أمامَ نفسه عندما يتساءَلُ عن موضوعٍ لشِعره أو رسمه أو موسيقاه.

٥- ألتـَّأمُّل اللاَّواعي

قد يُحدِّقُ أحدُهم، بلا وعي، في تقاطيعَ ونتوءاتٍ ممَّا قد يتواجدُ في حقل نظره من أشياء (جدار – لوحة – كرسيّ – درج – ستارة ...). وعلى الرَّغم من أنَّ هذه التَّقاطيعَ لا تمثِّلُ أيَّ واقعٍ على الإطلاق، يروحُ الفكرُ اللاَّواعي بمقابلتها مع بعض الصُّوَر الَّتي اختزنَها سابقًا، فتتراءى له، في تلك التَّقاطيع، أشكالٌ قد تُحفِّزُ الوعيَ على سلوك الطَّريق الصَّحيح في التَّفكير.

٦- ألمنطِـقُ اللاَّواعي

يعملُ المركــزُ، في حالة اليقظة، على التدخُّل المستمرّ في التَّفكير. فيقودُ السَّلاسلَ

الذَّاكريَّةَ في اتِّجاهات متفرِّقة بتأجيجه بعضَ الخلايا الخاصَّة. وقد يصعبُ، في بعض الأحيان، الوصولُ في هذه الحال إلى نهاية ملائِمة.
وأمَّا في حالة اللاَّوعي والاسترخاء، فتجري التَّأثيرات، من دون تدخُّل المركز، بحَسَب الطَّريق الأسهل، وتبعًا للخلايا الأكثرَ عمقًا في آثارها. وقد تصلُ إلى نهاية قد تمثِّلُ الحلَّ المطلوب. وهذا ما نُطلقُ عليه اسمَ المنطِق اللاَّواعي.

٧- ألإيمان

ألإيمانُ هو نوعٌ من الإيحاء الذَّاتيِّ ينشطُ فيه الفكرُ بمشاركة الذَّاكرة الغريزيَّة، بالتَّركيز على الذَّات من خلال عنصر خارجيٍّ يعكسُ عليه الفكر نفسه.
والعنصرُ الخارجيُّ قد يكونُ شيئًا ماديًّا، أو مجرَّدَ فكرة طارئة. "آمِنْ بالحجر تبرأ".

البابُ الثَّالث
مُسَيَّرون أم مُخَيَّرون؟

مُسَيَّرون أم مُخَيَّرون؟

طُرِحَ هذا السُّؤالُ منذ القِدَم. وقد انكبَّ عليه جهابذةُ الفكر والعقل على مَرِّ الزَّمن؛ فطرحوا النَّظريَّاتِ المختلفة، وأتَوا بنتائجَ متباينة، وأحياناً متضاربة، من دون الوصول إلى حلٍّ يُرضي الجميع، وهذه المحصِّلةُ كانت حتميَّةً أوَّلاً لعدم الاتِّفاق على تحديدٍ واضحٍ لمَفهومَي التَّسيُّر والخيار، ممَّا أوقعَ الكثيرين في الالتباس، وثانيًا لعدم الغوص في ظروفهما وجَلاء ما يحيطُ بهما من معانٍ تساعدُ في إيضاح الصُّورة.

وهذا ما قُمنا به في هذا الباب، فجاء:

في **الفصل التَّاسع**، مفهومُ الحرِّيَّة بعامَّة.

وفي **الفصل العاشر**، توضيحٌ عن الإنسان وأيِّ إنسان.

وفي **الفصل الحادي عشر**، الجوابُ على السُّؤال المطروح.

وأمَّا في **الفصل الثَّاني عشر**، فتمَّ تحديدُ بعض قوى الإنسان النَّفسيَّة وعلاقتها بمَفهوم الحرِّيَّة.

الفصلُ التـَّاسع
في الـحرِّيَّة

١- عودةٌ إلى الظُّروف

لماذا الظُّروف؟ لأنَّ الظُّروفَ هي الَّتي تولِّدُ التَّأثيراتِ الَّتي يَنوءُ بثقلها الشَّيءُ وتُلزمُه بما تنتفي معه الحريَّة.

وقد يُقالُ عن الظُّروف، بحَسَب الحالة، المستلزمات، أو الدَّوافع، أو الشُّروط، أو الحاجات، أو الارتباطات، أو الضُّغوطات، أو الأسباب أو غيرها من الأسماء.

٢- في الظُّروف

ظروفُ شيءٍ هي الشُّروطُ الوجوديَّةُ القائمةُ، أي تلك الَّتي تؤثِّرُ عمليًّا في الشَّيء المَعنيّ. وعلى نحوٍ أوضح، هي خاصِّيَّاتُ محيطه القريب والبعيد، وخاصِّيَّاتُ الشَّيء نفسه. وهذه الخاصِّيَّاتُ قد تكونُ شيئًا، أو عدَّةَ أشياء، أو حالات عامَّة. فالحجرُ الَّذي تركَه الصَّبيُّ يقعُ على الأرض (يتأثَّر) لأنَّ الأرضَ (من محيطه) جذبَتْه. فالأرضُ تؤلِّفُ ظرفًا من ظروف الحجر. والجبلُ يبقى عرضةً للشَّمس في الصَّيف (تأثير) وللمطر في الشِّتاء (تأثير) لأنَّ الشَّمسَ والمطرَ يؤلِّفان جزءَين من محيطه. والإنسانُ الَّذي يعيشُ في الأماكنِ الجليديَّة عليه تحمُّلُ الصَّقيع والبرد، لأنَّ الصَّقيعَ والبردَ هما من محيطه ويؤلِّفان، بالتَّالي، ظرفَين مفروضَين عليه.

٣- في الارتباطات

ألارتباطُ هو تأثيــرٌ متبــادَلٌ ومستمرٌّ بين شيئَين (أو أكثر) يكونُ بنتيجته نوعٌ مــن

توحيد الكيان بينهما (أو بينهم). وقد يُقالُ عن أحدهما المَربوط، وعن ثانيهما المَربوط به. وقد ترتبطُ بالمَربوط أو بالمَربوط به أشياءُ أخرى.
وقد يشدُّ الارتباطُ المَربوطَ بالمَربوط به، عن طريق شيءٍ ثالثٍ يؤمِّنُ ذلك الارتباطَ والمواجهةَ الضَّروريَّة، يُقالُ له وسيلةُ الارتباط، أو، فقط، الرَّابط.
فالعصفورُ الَّذي احتجزَه قفصٌ ارتبطَ بذلك القفص، وألِّفَ معه كيانًا واحدًا.
وأمَّا الشَّاةُ الَّتي رُبِطَتْ بجذع شجرة، عن طريق حَبلٍ، فتُصبحُ مع ذلك الحبل، وذلك الجذع، كلاًّ واحدًا.
وفي بعض الأحيان يكونُ المَربوطُ امتدادًا للمَربوط به. فالعجوزُ الَّذي يتسكَّعُ مستنِدًا إلى عصاه، يرتبطُ بذلك العصا، وتَصبحُ تلك العصا جُزءًا منه. والارتباطُ يؤلِّفُ ظرفًا خاصًّا للمَربوط أو للمَربوط به، لأنَّه يؤلِّفُ لكلٍّ منهما حالةً خاصَّة.

٤- فـي الحاجات

ألحاجةُ، عند شيءٍ ما، هي الحالةُ الَّتي يخضعُ فيها هذا الشَّيءُ لظروفٍ مفروضَةٍ تُهدِّدُ استمرارَه، فيصبحُ في انتظار ظروفٍ جديدةٍ تساعدُه على رفع هذا التَّهديد.
فالسُّيولُ قد تجرفُ التُّربةَ من تحت الصَّخرة المُلقاة في أعلى الجبل، فتهدِّدُها بالانقلاب (تغيير خاصِّيَّة) والتَّدحرُجِ إلى أسفل الجبل. فتتوَلَّد الحاجةُ عند تلك الصَّخرة لمنع هذا التَّغيير.
ونشيرُ إلى وجوب التَّمييز بين الحاجة كحالة، والحاجة كشيء آخرَ إذا تمَّ وجودُه لمَنع التَّغيير: فوجودُ صخرةٍ أخرى استندَت إليها صخرتُنا السَّابقة، وقدرتُها على منعها من التَّدحرج كانتِ الحاجةَ لمَنع الانقلاب.

والحاجةُ هي ظرفٌ خاصّ. فهي إمَّا أن تكونَ حالةً عامَّةً أو شيئًا من المحيط.

٥- ألحرِّيَّةُ المُطلَقَة

أقولُ إنِّي أتمتَّعُ بحرِّيَّة المَشي إذا كنتُ أستطيعُ أن أمشيَ متى كان، وأينما كان، من دون أن يكونَ هناكَ سببٌ أو دافعٌ يُلزمُني بذلك، ومن دون أن أضعَ شروطًا على نفسي، أو على أيِّ شيءٍ آخرَ، ومن دون أن يكونَ هناكَ من رادعٍ يمنعُني.

فإذا قلتُ، لا أستطيعُ المشيَ في الظَّلام الدَّامس من دون نور، لن أكونَ حرًّا، فهناك الظَّلامُ يُعيقُني. وإذا قلتُ، لا أستطيعُ المَشيَ عندما أكونُ مريضًا، مثلاً، فلن أكونَ حرًّا كذلك، فالمرضُ يُعيقُني. وإذا قلتُ، لا أستطيعُ المَشيَ إلاَّ إذا كانتِ الطَّريقُ سالكةً، فلن أكونَ حرًّا أيضًا. وإذا مشَيْتُ أمامَ أحدهم لأُبرهِنَ له أنِّي حرٌّ، أكونُ قد ألزَمتُ نفسي بالمَشي، ولَما كنتُ حرًّا، بل عبدًا لذلك الإلزام.

ولعلَّ أحدَهم يقول: "أنا حرٌّ أن أفعلَ ما أشاء. أنا حرٌّ أن أمشيَ حتَّى ولو كانتِ الطَّريقُ غيرَ مُضاءة، أو غيرَ سالكة، حتَّى ولو حدثَ لي مَكروه".

نحنُ لا نوافقُه الرَّأيَ، إذ نتساءل: "لماذا يريدُ هذا الحرُّ أن يجازفَ؟ فإن كانَ واعيًا ومُدركًا، فلا بدَّ أن يكونَ من سببٍ لهذه الإرادة. وهذا السَّببُ هو الَّذي يُلزمُه بالمجازَفة. ثمَّ إنَّ الإرادةَ تنبعُ من التَّفكير. والتَّفكيرُ الواعي يرتكزُ على مُعطَياتٍ مُختزَنَةٍ في الذَّاكرة الإدراكيَّة. وهذه المُعطَياتُ لم يكنْ هو حرًّا في اختزانها، بل فُرضَت عليه فرضًا، وهو لا حولَ له ولا قوَّة لتغييرها أو لنبذها. وعليه، فالمجازفةُ الَّتي أرادَها صاحبُنا لم يكنْ خِيارُها خِيارًا حرًّا، بل أمْلَتْه عليه الظُّروفُ الحاليَّةُ الَّتي جعلَتْه يفكِّرُ، وظروفُه السَّابقةُ الَّتي فرضَت عليه سببَ القرار.

وإنْ كانَ غيرَ واعٍ، فالغريزةُ تدفعُه إلى ما قد يقرِّرُه، أو ما قد يقومُ به، وهذه ليست بحرِّيَّة. فعلى الرَّغم من أنَّ الغريزةَ منه وله، وتؤلِّفُ جُزءًا من كيانه، فهي لم تكنْ لتعملَ لو لَم تُلزمْها الظُّروفُ بذلك".

يظهرُ من هذه الأمثلة، في المُختَصَر، أنَّ الحرِّيَّةَ لا تتواكبُ مع الظُّروف. فالقدرةُ والإرادةُ والغريزةُ هي ظروفٌ داخليَّة، والإعاقةُ والحاجةُ والشَّرطُ والسَّببُ هي ظروفٌ داخليَّةٌ وخارجيَّة.

وإذ نلاحظُ أنَّ الظُّروفَ تتحكَّمُ بكلِّ جوانب اللُّعبة، وتكبِّلُ الأشياء، وتُخضعُها لمشيئتها، فقد حدَّدْنا الحرِّيَّةَ على النَّحو الآتي:

"ألحرِّيَّةُ المُطلَقَةُ هي الحالةُ الَّتي تنتفي معها جميعُ الظُّروف الفاعلة".

عند الحرِّيَّة المطلَقَة لا يتأثَّرُ الشَّيءُ بأيَّة جهة، أو بأيِّ شيءٍ آخر، ويكونُ في الحالة الَّتي لا يتأثَّرُ بها على الإطلاق. هذا التَّحديدُ يتطابقُ مع تحديد الكمال المُطلَق. الحرِّيَّةُ المُطلقةُ لا توجَدُ إلاَّ عند الكمال المُطلَق.

ألإنسانُ لا يمكنُه الوصولُ إلى الحرِّيَّة المُطلَقة لأنَّه يخضعُ دائمًا لظروف محيطه. فلو حاولَ الابتعادَ عن جاذبيَّة الأرض مثلاً، قُلْ داخلَ مركبةٍ فضائيَّة، لتحرَّرَ من تلك الجاذبيَّة، لكنَّه كان تعرَّضَ لظروفٍ جديدةٍ ألزمَته الخضوعَ لها، أقلُّها البقاءُ داخلَ المركبة أو ارتداءُ بِزَّةٍ خاصَّة تَقيه من الاشعاعات القاتلة، وتؤمِّنُ له مخزونَه الكافي من الهواء.

الحرِّيَّةُ المُطلَقةُ بعيدةُ المَنال، لا بل مستحيلة.

٦- ألحرِّيَّات النِّسبيَّة

بما أنَّ الشَّيء (أو الإنسان) لا يمكنُه بلوغَ الحرِّيَّة المطلَقَة، قُمنا بتحديد حرِّيَّات جزئيَّة (حرِّيَّة لكلِّ ظرف) يكونُ الشَّيءُ (أو الإنسانُ) قادرًا على التَّمتُّع بها.

وهذه الحرِّيَّاتُ تُنعَتُ بالنِّسبيَّة لأنَّ كلَّ واحدةٍ منها تتعلَّقُ بظرف معيَّن وتُنسَبُ إليه. وبما أنَّ الظَّرفَ يؤثِّرُ، والتَّأثيرَ يكبِّلُ الشَّيءَ (أو الإنسانَ)، قُمنا بتحديد الحرِّيَّة على الوجه الآتي:

"حرِّيَّةُ شيء بالنِّسبة إلى ظرف (أو شيء آخر) هي الحالةُ الَّتي لا يتأثَّرُ بها هذا الشَّيء بتأثيرات ذلك الظَّرف (أو الشيء الآخر)".

أو، على نحوٍ آخر:

"يكونُ الشَّيءُ حرًّا بالنِّسبة إلى شيءٍ آخرَ إذا لم يتأثَّرْ به".

فأقولُ مثلاً، أنا حرٌّ بالنِّسبة لأيِّ مواطنٍ صينيٍّ في بلاد الصِّين لأنِّي لا أتأثَّرُ به. وأمَّا بالنِّسبة لآلي وأصدقائي فأنا لستُ حرًّا لأنِّي أتأثَّرُ بهم، أتأثَّرُ بآرائهم، بوجودهم، بكلامهم، بنظراتهم، بمصادفتهم، بالتَّفكير بهم، وبغير ذلك.

والحجرُ المُلقى في أعلى البستان حرٌّ بالنِّسبة إلى ماء المستنقع الكائن في أسفل الوادي، لأنَّ ماءَ المستنقع لا تؤثِّر فيه، لكنَّه ليس حرًّا بالنِّسبة إلى الأرض لأنَّ جاذبيَّةَ الأرض تؤثِّر فيه.

ونشيرُ إلى أنَّ الشَّيءَ أو الإنسانَ قد يكونُ حرًّا بالنِّسبة إلى بعض الظُّروف، بينما يكونُ في الوقت عَينِه فاقدًا الحرِّيَّةَ بالنِّسبة إلى ظروفٍ أخرى، فيكونُ حرًّا لبعض الظُّروف، وعبدًا للظُّروف الأخرى، في الوقت عَينه.

٧- ألتـَّأثيراتُ المحدودة - الحرِّيَّةُ المُقيَّدَة

هناكَ تأثيراتٌ لا تُصيبُ الأشياءَ إلاَّ في مدًى معيَّنٍ، من دونه لا تعودُ لها أيَّةُ فاعليَّة، وخارجَ هذا المدى قد يتمتَّعُ الشَّيءُ بحرِّيَّة نسبيَّة يُقالُ لها الحرِّيَّةُ المقيَّدة، وللتَّأثير المتعلِّق بها يُقالُ التَّأثيرُ المَحدود.

فالسَّجينُ مقيَّدُ الحرِّيَّة بالنِّسبة إلى تحرُّكه؛ أيْ أنَّه لا يستطيعُ أن يستفيدَ من تلك الحرِّيَّةَ سوى في فضاء سجنه الَّذي يقعُ داخلَ نطاق الجدران. فهذه تمنعُه (تأثيرٌ محدود) عن الحركة في مداها الخارجيّ، والشَّاةُ المربوطةُ إلى جذع شجرة عن طريق حبلٍ تتمتَّعُ بحرِّيَّتها من ضمن دائرةٍ يرسمُها الحبلُ المشدود. وخـــارجَ هـــذا

النِّطاق يُمثِّلُ الحبلُ إعاقةً لتحرُّكها. والشَّمسُ تكبِّلُ الحيوانَ بحرارتها طالَما بقيَ في مواجهتها. وأمَّا إذا لجأ إلى ظلِّ شجرة، فلا تعودُ تؤثِّر فيه. فتأثيرُها محدودٌ بالمواجهة.

ومدى التَّأثيرُ المحدودُ لا يتعلَّقُ دائمًا بالشَّيء المؤثِّر، وإنَّما بالشَّيء المتأثِّر أيضًا. فجاذبيَّةُ الأرض (تأثير) تبقى فعاعلَةً للأشياء الصَّغيرة لبضع مئاتٍ من الكيلومترات فقط، بعد ذلك، لا تعودُ تُصيبُ تلك الأشياء. بينما هذه الجاذبيَّةُ بالذَّات تُصيبُ الشَّمسَ الَّتي تبعدُ الملايين من الكيلومترات عن الأرض.

٨- ألتـَّحرُّر

ألتَّحرُّرُ من ارتباطٍ هو انفصالُ الشَّيئَين المرتبطَين، وذلك بإنهاء المواجهة إنْ كانا مرتبطَين بمواجهة مباشرَة، أو بتدمير وسيلة الارتباط، إنْ كانا مرتبطَين بتلك الوسيلة.

وتحرُّرُ شيءٍ من حاجة هو ارتباطُ هذا الشَّيء بشيءٍ ثانٍ متوفِّرٍ تنتفي عن طريقه تلك الحاجة. فالفردُ الَّذي يتبلَّلُ بماء المطر بحاجة إلى ما يَقيه من الماء، فإنْ تجهَّزَ بمظلَّة (ارتباط) لَسَدَّ حاجتَه.

وتحرُّرُ شيءٍ من تأثير شيءٍ آخرَ هي الحالةُ الَّتي لا يعودُ فيها الشَّيءُ الآخرُ يؤثِّرُ في الشَّيء المَعنيّ، وذلك بإنهاء المواجهة أو بزوال التَّأثير.

وتحرُّرُ شيءٍ على نحوٍ عامٍّ من تأثير ظرفٍ ما هو سوى الحالةِ الَّتي لا يعودُ فيها ذلك الظَّرفُ يؤثِّر في ذلك الشَّيء:

- إمَّا بزوال الظَّرف، وبالتَّالي، المواجهة والتَّأثير.
- وإمَّا بمنع المواجهة، وذلك بحَجبها عن طريق أمرٍ ما.
- وإمَّا بانتقال المتأثِّر إلى خارج مدى التَّأثير.

ويصبحُ التحررُ، بالتَّالي، انتقالَ الشَّيءِ المقيَّدِ إلى نوعٍ من حرِّيَّة نسبيَّة.
وأمَّا في الحرِّيَّة المقيَّدة فيكونُ التَّحررُ بتوسيع مدى تلك الحرِّيَّة.

٩- صراعُ الحرِّيَّات - الحرِّيَّةُ المُميتة

عندما توجَدُ مجموعةٌ كبيرةٌ من الأفراد المُتجانِسين، أو المتشابِهين، في نطاق حرَّيَّة مقيَّدة واحدة، يعملُ كلُّ فردٍ على أن يكونَ ذلك المدى خاصًّا به، وامتدادًا لكيانه، فيتحوَّلُ عبئًا على الآخرين؛ ويَضيقُ، بالتَّالي، نطاقُ حرِّيَّة الفرد الواحد؛ عندها:

– إمَّا أنْ يتقاسمَ الأفرادُ ذلك المدى ليصبحَ لكلِّ فردٍ جزءٌ منه، أي مداه الخاصّ، ويرسو عندها توازنٌ قد يستمرُّ، وقد لا يستمرّ.

– وإمَّا أنْ يحاولَ كلُّ فردٍ التَّحررَ بتوسيع نطاق حرِّيَّته، فيتواجهَ مباشرةً مع الأفراد الباقين، وبخاصَّةٍ مع أولئك المجاورين له، فتسودُ الفوضى ويُلغي البعضُ البعضَ الآخرَ، وعادةً ما يبقى الأقوى. وهذا هو صراعُ الحرِّيَّات، وأحدُ قوانين الوجود.

"ليس المهمُّ أنْ ننعمَ ببعض الحرِّيَّات. المهمُّ أنْ لا تتصادمَ حرِّيَّاتُنا مع حرِّيَّات الآخرين، ونكونَ الحلقةَ الأضعف، فيكونُ نصيبُنا الإلغاء".

١٠- ألتَّسَيُّر

تسيُّرُ شيءٍ هو الحالةُ الَّتي يبقى فيها ذلك الشَّيءُ خاضعًا لتأثير ظرفٍ مستمر، أو عدَّة ظروفٍ مستمرَّة، فيتغيَّرُ بتغيُّرها، ويتوقَّفُ بتوقُّفها. ونقولُ إنَّ هذا التَّأثيرَ يتحكَّمُ بذلك الشَّيء.

والتَّسَيُّرُ عكسُ الحرِّيَّة؛ إذ في الحرِّيَّة لا تأثير.

والعبوديَّةُ هي التَّسَيُّرُ المفروضُ على الإنسان على نحوٍ خاصّ.
فالقلمُ الَّذي يخطُّ إنسانٌ رسالةً عن طريقه مُسَيَّرٌ من قبل قبضة اليد الَّتي تُمسكُه، وهذه تتغيَّرُ ويتغيَّرُ تأثيرُها في القلم.
والإنسانُ الخاضعُ لتقلُّبات الطَّقس مُسَيَّرٌ من قبل ذلك الطَّقس. فإنِ اشتدَّ الحرُّ كانَ له ردَّ فعلٍ معيَّنًا، وإنْ حلَّ الصَّقيعُ كانَ له ردَّ فعلٍ آخرَ. وهو لا حولَ له ولا قوَّةَ على التَّحرُّر منهما.
نُشيرُ إلى أنَّ بعضَ التَّسَيُّرِ يُريحُ الإنسانَ ويُسعِدُه، أو على الأقلّ، لا يُزعجُه، والبعض الآخرَ يُتعسُه ويَغمُّه. ولكن في ما خصَّ الحرِّيَّةَ، فلا تمييزَ بين هذا البعض أو ذاك. التَّسَيُّرُ هو التَّسَيُّر. فالمنظرُ الجميلُ يسحَرُني ويجذبُني ويُبقيني ساعاتٍ أتأمَّلُه. المنظرُ الجميلُ أسرَني. والحربُ المدمِّرةُ أجبرَتني على البقاء مختبئًا طالَما بقيَتْ تتأجَّج، وقد أتعسَتني.

١١- ألخِيار

يُحدَّدُ الخِيارُ كعمليَّة انتقاء أمرٍ بين عدَّة أمور.
وهذا التَّحديدُ يُصوِّرُ الخِيارَ وكأنَّه نوعٌ من حرِّيَّة مقيَّدَة بعددِ الأمور المعنيَّة. ولكن، في الواقع، هو عبوديَّة:
١- فالخِيارُ بحدِّ ذاته مُلزمٌ من قبل طرفٍ معيَّن.
٢- والأمورُ الَّتي يجبُ الخِيارُ بينها هي الأخرى مفروضةٌ فرضًا من قبل ذلك الطَّرف، أو أيِّ طرفٍ آخر.
٣- والأمرُ الَّذي يُتمُّ اختيارُه عادةً ما يكونُ صاحبُ التَّأثير الأقوى والَّذي يفرضُ نفسُه فرضًا.
وعليه، فالخِيارُ ليس بحرِّيَّة، الخِيارُ نقيضُ الحرِّيَّة. الخِيارُ هو التَّسَيُّرُ بوجهٍ آخر.

فعندما يصلُ سيلُ ماءٍ منحدرٍ إلى تفريعة وديان، هو لا يختارُ الوادي الَّذي يروقُ له، بل يُلزَمُ بأخذ الوادي الأعمق والأوسع والأكثر انحدارًا.

١٢- مظاهرُ الحرِّيَّة عند الإنسان

لا دوافع – لا أسباب – لا إعاقات – لا شروط – لا ارتباطات.

عدمُ تأثُّر – عدمُ تأثير.

ألتجرُّدُ من رواسب الماضي، من العادات، من التَّقاليد.

ألتَّركيزُ على النِّسيان.

الفصلُ العاشر
الإنـسانُ، أيُّ إنـسان؟

ألإنسان؟

أيُّ إنسانٍ نعني بالإنسان؟ هل هو الرَّجلُ أم المرأة؟ هل هو الطِّفلُ أم البالِغُ أم الكهل؟ هل هو المتعلِّمُ أم الأمِّيّ؟ هل هو السَّالمُ الصَّحيحُ، أم الأعمى الكفيفُ، أم المعتلُّ المريض؟ هل هو العاقلُ أم المجنون؟ هل هو الإنسانُ اليقِظُ الواعي، أم الإنسانُ النَّائمُ الحالمُ، أم الإنسانُ الغريزيّ؟

يقولون إنَّ الإنسانَ هوَ كما هوَ. أقولُ لا. فالإنسانُ الـــ "هوَ" لا يبقى هوَ هوَ، بل يتغيَّرُ في كلِّ وقت، وفي كلِّ لحظة. فالظُّروفُ الَّتي يخضعُ لها تتغيَّرُ ومعها يتغيَّر. والإنسانُ عرضةٌ لتأثيرات متواصلة. وهوَ، قبلَ أنْ تصيبَه تلك التَّأثيرات، غيرُه عن ما هوَ بعد أنْ تصيبَه تلك التَّأثيرات. فهذه ستتركُ في كيانه آثارًا يصبحُ معها إنسانًا جديدًا، وتُصبح تأثيراتُه وردَّاتُ فِعله الخاصَّة غيرَها عمَّا كانت عليه قبلاً.

فالطِّفلُ الَّذي يزورُ البحرَ للمرَّة الأولى لا يعرفُ معنى الغَرَق. فهو لم يختبرِ الماءَ بَعدُ. وإذ يرى الكلُّ من حوله يسبحون، يغامرُ ويتقدَّمُ إلى الماء. وعندما تغمرُه المياهُ تنتجُ عنده مخاوفُ تتركُ في نفسه أثرَ البحر. فيتحوَّلُ فرحُه بالماء خوفًا. الطِّفلُ لم يعُدْ هوَ هوَ. لقد تغيَّر.

وكما الطِّفلُ كذلك المراهقُ والبَّالغُ و...

ألإنسانُ هو الإنسان، بماضيه منذ ولادته، وحتَّى ما قبلَ ذلك، إلى ساعة وجوده. وفي البحث عن الحرِّيَّة، لا يمكنُنا تجاهلُ الأحداث الَّتي مرَّ بها، ولا يمكنُنا، بالتَّالي، أن نجرِّدَه من كلِّ ما خضعَ له سابقًا وطبعَه بأثَره.

١- ألإنسان

ككلِّ شيءٍ موجود، الإنسانُ مجموعةٌ من الخصائص والصِّفات المرتبطة والمستمرَّة معًا بارتباطها وتغيُّرها، من ضمن شروط وجودها وأصوله؛ وهو، فضلاً عن ذلك، من المجموعات الأكثرَ تعقيدًا، أي أنَّ الإنسانَ يبقى خاضعًا للقواعد عَينِها الَّتي تخضعُ لها سائرُ الأشياء الأخرى، ويبقى متَّصِفًا بالصِّفات عَينِها الَّتي تتَّصِفُ بها، ولكنَّه يختلفُ عنها بدرجة التَّعقيد، أي بكون صفاته في أعلى درجات التَّعقيد الوجوديَّة.

والإنسانُ يخضعُ كذلك لقانون الوجود العامّ، بكونه في تغيير مستمرٍّ من ضمن شروط محيطه، وظروفه، وبتبادله تأثيرات متنوِّعة مع كلِّ ما جاورَه وواجهَه.

٢- ألإنسانُ تراكمُ آثار

ما قيلَ عن الشَّيء، بعامَّةٍ، يُقالُ عن الإنسان بخاصَّة. فالإنسانُ، ككلِّ شيء، هو تراكمُ آثار. ولكن، عند الإنسان، هذا التَّراكمُ معقَّدٌ جدًّا، وذلك تبعًا لمرتبته في سلَّم التَّعقيد الوجوديّ. فالإنسانُ هو في رأس السُّلَّم، من حيث قوَّة التَّعقيد؛ وعليه، فإنَّ تراكمَ الآثار عنده أنواعٌ وأشكال.

* هناك تراكمُ آثار المأكول والمشروب. فكلُّ ما يأكلُه الإنسانُ ويشربُه ينعكسُ على نموِّه بالعناصر الكيميائيَّة المتوفِّرة في ذلك المأكول أو المشروب. فهذه الخضارُ تمدُّه بالـــڤيتامينات الَّتي يحتاجُها لنموِّه، وتلك اللُّحومُ تمدُّه بالدُّهون اللاَّزمة للمحافظة على طاقته، وتلك الأجبانُ تمدُّه بالكَلْسْيوم الضَّروريِّ لتقوية عظامه...

* هناك تراكمُ آثار الظُّروف المناخيَّة الَّتي خضعَ لها. فالشَّمسُ المُحرقةُ تجفِّفُ جلدَه وتُدكِنُه، والطَّقسُ الجليديُّ يُبَرِّدُ أطرافَه ويحـــوِّلُ لونَه إلى الاحمرار، وباقي العوامل

الطَّبيعيَّة تؤثِّر فيه، وتتركُ بصماتِها الظَّاهرةَ عليه.

* هناك تراكمُ آثار تفاعلاته مع التَّجمُّعات البشريَّة المتفرِّقة الَّتي صادفَها في حياته. فعائلتُه طبعَتْه بلغتها وعاداتها وبعض آرائها. وجيرانُه ورفاقُه وزملاؤُه في المدرسة، أو في غيرها من الأماكن الَّتي كان يرتادُها، صقلوا نفسَه بشتَّى أنواع القيل والقال، وبثُّوا في روحه آراءَهم.

* هناك تراكمُ آثار المعرفة الَّتي تلقَّاها ممَّن احتكَّ بهم، وكانوا أوسعَ منه علمًا ودرايةً في مختلف الميادين.

* هناك تراكمُ آثار الضُّغوطات النَّفسيَّة والجسديَّة الَّتي اضطَرَّ إلى الخضوع لها، في حياته، من اضطهاد، ورفض، وبغض، إلى أمراضٍ وأذًى جسديّ.

وهناك ما هناك من تأثيرات تركَتْ فيه بصماتِها، بدءًا من تراكمات نموِّه في أحشاء أمِّه حتَّى ساعة وجوده.
وهذه التَّراكماتُ ترسَّختْ، ليس في ذاكرةٍ واحدة، بل في العديد منها. فعند الإنسان ألفُ ذاكرةٍ وذاكرة. وكلُّ عضوٍ فيه ذاكرة، وكلُّ طرفٍ من أطرافه ذاكرة، وكلُّ جزءٍ من أجزائه ذاكرة، لا بل كلُّ خليَّة من خلاياه ذاكرة.
لكنَّ هذه التَّراكمات ليسَت منفصلةً تمامًا، بل تتداخلُ وتتفاعلُ في ذاته لتجعلَ منه كيانًا واحدًا مميَّزًا. كيانٌ يتحكَّمُ بكلِّ ما يقومُ به، من تصرُّفات وأعمال، ومن ردَّات فعلٍ عفويَّةٍ أو إدراكيَّة، كما بكلِّ ما يطرحُه من أفكار واقتراحات، أو ما يجولُ في باله من خطط وقرارات. باختصار، تُصبحُ كلَّ ما هو عليه. وما الصِّفاتُ الَّتي يُسبغُ بها من ذكاء، أو دراية، أو بلادة، أو خرف، أو غيرها، إلاَّ انعكاسٌ لتلك التَّراكمات، يراها النَّاسُ بتوهُّجِها.

وفي المقابل، فإنَّ تصرُّفاتِه وردَّاتِ فعله تُنبئُ بالعلائق الَّتي خضعَ لها، منذ ولادته وما قبلَها. فكلُّ حركةٍ من حركاته، إنَّما هي تذكُّرٌ لمُسَبِّبات تلك الآثار، وكلُّ كلمة ينطقُها، إنَّما هي خلاصةُ الآثار المَصقولة في نفسه وروحه، وكلُّ رأي يقدِّمُه، ليس لدهائه، إنَّما لتفاعل الآثار المعرفيَّة والإدراكيَّة التي اختزنَها. وعندما يرى دائرةً مشعَّة، هو ينطقُ بكلمة شمس لأنَّ أثرَ تلك الكلمة في دماغه قد أُثير. وهذه الكلمةُ لا بدَّ أنْ يكونَ قد سمعَها سابقًا، فارتبطَ أثرُها بآثار كلمات وصُوَر شتَّى متعلِّقةٍ بالشَّمس، وذلك في ظروف متنوِّعة، فشكَّلَت تلك الآثارُ أشراكًا وسلاسلَ ذاكريَّةً مسجَّلةً بحيثُ أنَّ كلَّ كلمة أو صورة توقظُ آثارَ الصُّور والكلمات الباقية.

٣- ألإمتدادُ المادِّيُّ للجسم الإنسانيّ

من أجل استمرار الإنسان، وُجِبَ استمرارُ بعض الشُّروط المرتبِطة به، أي شروطِه الوجوديَّةِ الَّتي تؤلِّفُ محيطَه. فالإنسانُ لا يمكنُ أن يُجرَّدَ من محيطه لأنَّه لا يستطيع، ولن يستطيعَ أن يعيشَ خارجَه أو خارجَ ما يُجاريه، فلقد تطوَّرَ الإنسانُ وتكوَّنَ من ضمنِه تمامًا لملاءَمته.

وعليه، فالإنسانُ ليس ذلك الجسمُ المجرَّدُ من بيئته، بل هو ذلك الإنسانُ المتفاعلُ مع محيطه. هو الجسدُ مع كلِّ ما يلزمُه من حاجات وأمور. فالهواء، والماء، والغذاء، والكساء وكلُّ ما اعتادَ على الاستعانة به، لتأمين استمراره، تمثِّلُ امتدادًا طبيعيًّا حقيقيًّا لجسده.

٤- ألإنسانُ تحت المِجهَر - ألجينات

أظهرَ العِلمُ أنَّ معظمَ خصائص الفَرد، الجسديَّة والنفسيَّة والطَّبائعيَّة، إنْ لم تكنْ كلُّها، بدءًا من لون البشرة، وقياس العينَيــن، وضخامة الشَّفتَين، وطول القامة، إلى

سرعة البديهة واليقظة، وغيرها من المعالم الَّتي تميِّزُه، متأتِّيةً من جزئيَّات صغيرة تُدعى الجينات (جمع جينة)، تؤلِّفُ نوعًا من سلَّم لولبيٍّ داخلَ خلاياه، وإنَّ هذه الجينات يرثُها ذلك الفردُ من أبوَيه بالتَّساوي.

ألإنسانُ ليس مسؤولاً عن خصائصه الجسديَّة وطبائعه الوراثيَّة. فهو لم يختَرْها، بل فُرضَت عليه فرضًا. فلا نطلُبَنَّ منه تغييرَها: إنَّها محفورةٌ في أعماقه.

٥- حاجاتُ الإنسانِ وعلاقتُها بالشُّعور

١"- عالمُ الحِسِّ وعالمُ الشُّعور

يُصدِرُ الضَّوءُ (ذبذباتٍ أو فوتونات) عن شيء مُنير، وإذ يُصيبُ العينَ تتأثَّر هذه به، وتحوِّلُه شِحناتٍ كهربائيَّةً تصلُ الدِّماغَ عن طريق الأعصاب. فيتأثَّرُ الدِّماغُ بهذه الشِّحنات وليس بالضَّوء.

يتأثَّرُ الإنسانُ بالتَّأثيرات الخارجيَّة على مرحلتَين. المرحلةُ الأولى على صعيد الحواسّ، والمرحلةُ الثَّانيةُ على صعيد الدِّماغ. الأولى تدخلُ عالمَ الحسّ، والثَّانيةُ عالمَ الشُّعور.

ألوجودُ عند الإنسان نوعان: الوجودُ الحسِّيُّ على مستوى الحواسّ، والوجودُ الشُّعوريُّ على مستوى الدِّماغ. ويتأمَّنُ الاتِّصالُ بين العالمَين عن طريق الأعصاب. والعالمان قد يستقلاَّن بتأثُّرهما، أي أنَّ أحدَهما قد يتأثَّرُ من دون أن يتأثَّرَ الآخر. إذ أنَّه من الطَّبيعيّ أن يتأثَّرَ الدِّماغَ مباشرةً بعد تأثُّر الحواسّ. ولكن، قد يشعرُ الإنسانُ من دون أنْ يكونَ هناكَ تأثيرٌ حسِّيٌّ، كحالة التَّذكُّر مثلاً، كما قد تتأثَّرُ الحواسُّ من دون أن يتأثَّرَ الدِّماغُ، كما هي الحالُ عندما يكونُ الإنسانُ في غيبوبةٍ مثلاً، أو في حالة استرخاءٍ غيرِ واعية.

في الاختصار، الشُّعورُ هو تأثُّرُ الدِّماغ غير المباشر من جَرى تأثيرٍ خارجيٍّ (خارج الجسم)، أو المباشر من جَرَى تأثيرٍ داخليّ (الذَّاكرة أو الغريزة)؛ بينما الحسُّ هو تأثُّرُ إحدى الحواسِّ من جَرَى تأثيراتٍ فيزيائيَّةٍ خارجيَّة.

٢"- حاجاتُ الإنسانِ وعلائقُها بالشُّعور

ألحاجةُ، عندَ الإنسان، تتأتَّى من حالاتٍ عدَّة، نختصرُها، على نحوٍ عامٍّ، بأربع. ويصاحبُ الحاجةَ، في العادة، شعورٌ يتعلَّقُ بها وينتسبُ إليها.

- ففي حالة الانزعاج الجسديّ، تتولَّدُ حاجةٌ للارتياح أو للدِّفاع، ويصاحبُها شعورٌ بالألم، أو الخطر، أو الغضب، أو العطش، أو الجوع، أو البرد، أو الاختناق، أو...

- وفي حالة الارتياح الجسديّ، تتولَّدُ الحاجةُ للحركة والضوضاء، ويصاحبُها شعورٌ بالشَّلل، أو الاسترخاء، أو العجز.

- وفي حالة الانزعاج النَّفسيّ، تتولَّدُ حاجةُ الرَّفض، ويصاحبُها شعورٌ بالقلق، أو الضُّعف، أو العجز، أو الغضب، أو الخوف، أو...

- وفي حالة الارتياح النَّفسيّ، تتولَّدُ حاجةُ القَبول، ويصاحبُها شعورٌ بالرِّبح، والسَّعادة، والاطمئنان، والفرح و...

٦- إرتباطاتُ الإنسان

يرتبطُ الإنسانُ، طبيعيًّا، بأمورٍ عدَّة. فهناك مثلاً:

* **<u>إرتباطاتٌ اجتماعيَّة:</u>**

مع عائلته، مع أصدقائه، مع أقاربه، مع جيرانه، مع زملائه، مع...

* **<u>إرتباطاتُ البيئة:</u>**

بأرضه، بوطنه، بقريته، بمسكنه، بالأشياء الحميمة الأخرى...

* **إرتباطاتٌ فكريَّة:**

بماضيه، بمعرفته، بثقافته، بلغته، بدينه، بعاداته، بـــ ...

* **إرتباطاتٌ شخصيَّة (تابعةٌ لشخصه):**

تتعلَّقُ بنموِّه، بنشأته، بجيناته...

* وهناك ارتباطاتٌ عاطفيَّةٌ ونفسيَّةٌ، وغيرها من الارتباطات.

٧- ظروفُ الإنسان

يخضعُ الإنسانُ لظروفٍ متنوِّعةٍ معظمُها مفروضٌ عليه فرضًا. نذكرُ منها:

١"- **ظروفُه الخاصَّة:** أي المتعلِّقةُ بكيانه كفَرد، من مِثل:

* **ألظُّروف الجسديَّة:**

ظروفُ نموِّه ونشأته، حاجاتُه الجسديَّة، ظروفُه الصِّحِّيَّة.

* **ألظُّروف الفكريَّة الواعية:**

لغتُه، مذهبُه، ثقافتُه، تقاليدُه.

* **ألظُّروف الفكريَّة اللاَّواعية:**

ذاكرتُه الغريزيَّة، حساسيَّتُه على بعض الأمور.

* **ألظُّروف الشُّعوريَّة:**

أي المتولِّدةُ عن الحاجات.

٢"- **ظروفُه العامَّة:** أي المتعلِّقةُ بمحيطه، من مِثل:

* **ظروفه الاجتماعيَّة**

* **ظروفه المادِّيَّة**
* **ألظُّروف الطَّبيعيَّة:** طبيعة، فضاء، فصول، مناخ...
* **ظروفه المعيشيَّة**
* و**غيرها من الظُّروف...**

٨- ألتـَّأثيراتُ الَّتي تُصيبُ الإنسانَ ومصادرُها

ألإنسانُ عرضةٌ لتأثيراتٍ شتَّى تُحَتِّمُها ظروفُ محيطه.

– هناك التَّأثيراتُ الَّتي تلتقطُها حواسُّه، من ضوء وذبذبات صوتيَّة وموادَّ كيمائيَّة تثيرُ خلايا أنفه، ومسامَّ لسانه، وكلِّ أنواع التَّأثيرات الَّتي تُصيبُ مَلمَسَه، من حرارة، وصلابة، ونعومة، وسيولة، وما شابهَها.

– هناك تموُّجاتُ الحاسَّة السَّادسة الَّتي تطرقُ ذاكرتَه الغريزيَّة.

– هناك التَّأثيراتُ الَّتي تُصيبُ جسدَه، من ضرب، وكسر، ومرض، وبَتر، وتخدير، وموت، وكلِّ أنواع أسباب الانزعاج الجسديِّ، أو ارتياحه.

– ثمَّ هناك التَّأثيراتُ الَّتي تُصيبُ عقلَه، من مرض، وقلق، وخوف، ومسّ، وسهو، وتخدير، وتبنيج، وغيرها وغيرها.

– كما أنَّ هناك التَّأثيراتُ الَّتي تُصيبُ معرفتَه بالمراقبة والتَّعلُّم والتَّمييز والتَّجربة.

– وتأثيراتٌ تأتيه من الطَّبيعة، بدءًا من جاذبيَّة الأرض، إلى تغيُّرات الطَّقس والعوامل الأخرى.

– وتأثيراتٌ اجتماعيَّة، سياسيَّة، مذهبيَّة، علميَّة، تقدُّميَّة، تكنولوجيَّة، وغيرها وغيرها.

وأمَّا مصادرُ هذه التَّأثيرات فمعروفةٌ من دون الدُّخول في تفاصيلها.

٩- ألخلاصة

ألإنسانُ الحرُّ هو الإنسانُ المجرَّدُ من كلِّ ما طُبعَ عليه من دون إرادته، الإنسانُ المجرَّدُ من كلِّ حاجاته وظروفه، الإنسانُ المجرَّدُ من كلِّ ما اختزنَتْه ذاكرتُه منذ ولادته حتَّى يومه، الإنسانُ الَّذي لا تُصيبُه التَّأثيراتُ مهما كان نوعُها.

فهل هناك إنسانٌ يجيبُ على هذه المواصفات؟

هل هناك إنسانٌ لا حاجات عنده؟ هل هناك إنسانٌ من دون ارتباطات؟ هل هناك إنسانٌ لا يخضعُ للظُّروف والتَّأثيرات؟

ألإنسانُ ليس حرًّا.

الفصلُ الحادي عشر
حرِّيَّةُ الإنسان

بعد كلِّ ما رأيناه سابقًا، هل نستطيعُ القولَ إنَّ هناك حرِّيَّةً ما عند الإنسان؟

ردَّاتُ فِعل الإنسان، واعيةً كانت أم غريزيَّة، هي ردَّاتُ فِعلٍ تتحكَّمُ فيها الظُّروفُ السَّابقةُ الَّتي خضعَ لها، وشاركَت في شَبك كيانه، والظُّروفُ الآنيَّةُ الَّتي يَنوءُ بثقلها.

ألإنسانُ عبدٌ لهذه الظُّروف.

ألإنسانُ الحرُّ هو الإنسانُ غيرُ الملتزم بأيِّ ارتباطٍ عاطفيّ، ثقافيٍّ نفسيّ، شخصيّ، أو غيره، وغيرُ الخاضع لتأثيرات جيناته ونشأته وتقاليده.

ألإنسانُ الحرُّ هو الإنسانُ الَّذي لا تعودُ شخصيَّتُه البيولوجيَّةُ ولا عقلُه الزَّاخرُ بالذِّكريات يؤثِّر في قراره.

ألإنسانُ الحرُّ هو الإنسانُ القادرُ على التَّخلُّص من الموت، ولا يموت، الإنسانُ الَّذي تُصيبُه الأمراض، ولا يمرض.

إستقبالُ الموت والأمراض ليس خِيارًا بل إذعانًا.

يُقال: لكنَّ هذه هي طبيعةُ الإنسان. نعم، نُجيب، لكنَّها جزءٌ من ظروفه، وهو لا يستطيعُ القفزَ فوقَها. الحرِّيَّةُ المُطلَقَةُ كلٌّ، ولا أَنصافَ فيها.

ألإنسانُ ليس حرًّا.

ألإنسانُ آلةٌ تتلاعبُ فيها الظُّروفُ والارتباطات، ككلِّ شيءٍ آخرَ في الوجود.

ولكن!

ولكن، قد تكونُ لدى الإنسان بعضُ فسحاتٍ من حرِّيَّة مَفقودة.

فدَعونا نبحثْ في ذلك علَّنا نجدُ ما نصبو إليه.

١- حرِّيَّاتُ الإنسان المُفترضَةُ والمُتاحة

يقولون إنَّ للإنسان حرِّيَّاتٍ نسبيَّةً عديدة، ومنها:

- حرِّيَّةُ الحركة والانتقال
- حرِّيَّةُ التَّصرُّف
- حرِّيَّةُ التَّعبير
- حرِّيَّةُ التَّفكير
- حرِّيَّةُ الاختيار: إختيارُ المأكل والملبس والمشرب والمسكن والأصحاب و...
- حرِّيَّةُ الانعتاق من الظُّروف المتوارثَة والتقليديَّة
- حرِّيَّةُ إبداء الرَّأي
- حرِّيَّةُ كذا وكذا...

في الواقع، هذه ليست حرِّيَّات؛ وبمجرَّد ظنِّ الإنسان أنَّها حرِّيَّاتٌ دليلٌ على عبوديَّة، إذ أنَّه يحاولُ بذلك أن يُقنعَ نفسَه أنَّه حرّ.
فالحرُّ لا يقولُ إنَّه حرٌّ ويُلزمُ نفسَه على إثبات ذلك.

ألحرُّ كالرُّوح يَنسابُ من دون حسّ.

٢- حرِّيَّةُ الخِيار

ألخِيارُ، عند الإنسان، يَعتمدُ على عدَّة ركائز:

- هناك أوَّلاً المعلوماتُ الَّتي يختزنُها الإنسانُ عن الأمور الَّتي يجبُ أخذُ القرار فيها.
- وهناك الظُّروفُ المحيطةُ بعمليَّة الخِيار.

– وهناك ظروفُ كيان الإنسان الَّذي عليه الخِيار، من ارتباطاتٍ وعلائقَ وحاجات، وغير ذلك.

وكلُّ هذه الأمورُ مفروضةٌ على الإنسان، إمَّا لأنَّه طُبعَ على البعض منها سابقًا، وإمَّا لأنَّه لا يزالُ يخضعُ لتأثير البعض الآخر.

فهل فعلاً يُمَثِّلُ الخِيار، عند الإنسان، مَظهرًا من مظاهر الحرِّيَّة؟

نُجيبُ في وضوحٍ أنْ لا، فالخِيارُ نقيضُ الحرِّيَّة:

– فالأمورُ المعنيَّةُ الَّتي على الإنسان الاختيارُ بينها مَفروضةٌ عليه فرضًا.
– ثمَّ إنَّ عمليَّةَ الخِيار، بحدِّ ذاتِها، هي الأخرى مَفروضةٌ عليه.
– وأخيرًا، أخذُ الخِيار النِّهائيِّ مفروضٌ عليه من قِبَل الظُّروف الحاليَّة المحيطة بعمليَّة الخِيار، وبالظُّروف السَّابقة الَّتي تركَت فيه آثارَها والَّتي تعملُ، من خلال هذه الآثار، على إلزامه بذلك الخِيار.

لا فرضٌ في الحرِّيَّة. لا خِيارٌ في الحرِّيَّة. الخِيارُ هو التَّسَيُّرُ بوجهٍ آخر. الحرِّيَّةُ كمالٌ والخِيارُ عبوديَّة.
ألإنسانُ الحرُّ هو الَّذي يتجرَّدُ من ماضيه وتاريخه وعلائقه. لكنَّ الإنسانَ المجرَّدَ من كلِّ ذلك لا يعودُ إنسانًا.
ألإنسانُ لا يمكنُ أن يكونَ حرًّا. الإنسانُ عبدٌ للظُّروف.

عندما يُطلَبُ منِّي، مثلاً، أن أنتقيَ لونًا بين ثلاثة، فالطَّلَبُ نفسُه فُرضَ عليّ، كما أنَّ الألوانَ الثَّلاثةَ فُرضَت، هي الأخرى، عليّ. يبقى لي أن أختارَ بين تلك الألوان أو الرَّفض المُطلَق. ومهما كانَ خِياري فهو سيكونُ مفروضًا عليَّ من قبل ظروفي الآنيَّة، والظُّـــروف السَّابقة الَّتي لا حَـــولَ كان لي بها، ولا قـــوَّة، والَّتي طبعَتْنـــي

بتأثيراتها. فقد أختارُ الرَّفضَ، مثلاً، إنْ كان مُحَدِّثي يُغالبُني في الحديث، ويكونُ الرَّفضُ مَفروضًا فرضًا عليّ. وإنْ أذعَنْتُ لمُحَدِّثي، وانتقَيْتُ لونًا، أكونُ قد خضَعْتُ له، وللخِيار، كما لظروفي السَّابقة الَّتي أملَتْ عليَّ انتقاءَ اللَّون الَّذي اخترتُه بالذَّات.

إنْ طُلبَ منِّي الخِيارُ بين الخير والشَّرّ، أكونُ أسيرًا لذلك الخِيار، لأنِّي لو كنتُ حرًّا لما كنتُ أخضعتُ نفسي، أو سمحتُ للآخرين باخضاعي لخِيارٍ كهذا. ثمَّ عليَّ أنْ أكونَ مُتَفهِّمًا أين يكمنُ الشَّرُّ، وأين منه الخير. وقد أختارُ الشَّرَّ إذا كانَ لا بدَّ منه.

إنْ قيلَ لي إنَّ الخيرَ هو لصالحي، ويُريحُ بالي، ويُعطيني حياةَ الأبديَّة في الآخرة، يكونُ ذلك إملاءً عليَّ (فَرض)، والمطلوبُ الأخذُ به لتجنُّب الويلات الَّتي ستلاحقُني، والموتُ في نار جهنَّم في حال رفضتُه (شَرط).

يقولون إنَّ هناك حرِّيَّةً ما في الخِيار. أقولُ لا، الخِيارُ عبوديَّة. ثمَّ، أيُّ خِيارٍ هو عند الإنسان؟ أهوَ اختارَ لونَ جلدته، أو جمالَ طَلعته، أو لغتَه، أو دينَه، أو وطنَه، أو أهلَه؟ هل هوَ من اختارَ ظروفَ نشأته؟

يقولون إنَّ الإنسانَ حرٌّ في اختيار مأكله.

في الأكل، الإنسانُ لن يكونَ حرَّ الاختيار أيضًا! فالجوعُ حاجةٌ تُلزِمُه وتُسَيِّرُه. الإنسانُ الحرُّ لا يَجوع. الإنسانُ الحرُّ يأكلُ ما يَشتهيه، لا الأفضلَ ممَّا هو مُتَوَفِّر (فَرض). الإنسانُ الحرُّ لا يمتنعُ عن الأكل ليبرهنَ إلى محدِّثه أنَّه حرّ، بينما هو، في الواقع، يكونُ عبدًا لحاجته لذلك البرهان.

٣- في الحرِّيَّات الأخرى

يقولون إنَّ الإنسانَ حرٌّ في تنشُّق الهواء، في التَّحرُّك والانتقال، حرٌّ في الأكل، متى شاء، حرٌّ أن يرى أو لا يرى، حرٌّ في كلِّ ما يَوَدُّ فِعلَه.

لا، تلك ليسَت حرِّيَّات.

فهل يستطيعُ الإنسانُ العيشَ بلا تنشُّق الهواء؟ لقد وُجدَ؛ ووجودُه فرضَ عليه المطلوبَ لاستمراره في الحياة. تنشُّقُ الهواء مَفروضٌ عليه. وأمَّا إذا قيلَ إنَّه قد لا يتنشَّقُ الهواءَ ليُثبتَ لنا أنَّه حرّ، فيكونُ، على العكس، عبدًا لذلك الإثبات. فلِمَ لا يَودُّ تنشُّقَ الهواء؟ أو لِمَ يريدُ الانتحارَ من دون سبب؟

"أنْ يتحرَّكَ"، مفروضٌ عليه. الإنسانُ مُلزَمٌ بالحركة والانتقال. عليه أنْ يتحرَّكَ كي لا تَيْبَسَ أعصابُه، كي يُظهرَ لمُحَدِّثه أنَّه حرّ، كي يدخُلَ الحمَّامَ للاغتسال... إنْ عطِشَ فلن ينتظِرَ من الإبريق أنْ يطيرَ ويحطَّ بين يدَيه ليُطفئَ نارَ ظمئِه، بل عليه أنْ يتحرَّكَ باتِّجاهه ليحصُلَ على مائِه.

"أنْ يتوَّقفَ" الإنسانُ، فلأنَّ هناك سببًا أجبرَه على ذلك: فقد يلتقي بصديق فيتوقَّف لمحادثته؛ وقد يجذُبُ نظرَه أمرٌ في قاطع الشَّارع، فيتوقَّف ليستطلعَ ما وراءَه؛ وقد يتعبُ فيتوقَّف ليستريح.

ألحركةُ والتَّوقُّفُ ليسا خِيارًا حرًّا. الإنسانُ يتحرَّكُ بحَسَب الحاجة، ولا يمكنُ أنْ يتحرَّكَ عكسَ ذلك. وهو يتوقَّفُ بحَسَب الحاجة، وليس عكسَ ذلك. الحاجةُ تُكَبِّلُه.

"أنْ آكلَ متى أريدُ، أو أمتنعَ عن الأكل"، لا يدلُّ على حرِّيَّتي. الجوعُ حاجةٌ وأنا عبدٌ لتلك الحاجة. وقد أجوعُ من دون أنْ آكلَ لسببٍ ما. فقد لا أجدُ ما آكلُه، وقد لا آكلُ لأبرهنَ لك أنِّي حرّ. وقد لا آكلُ لأنِّي ملزَمٌ بالصَّوم بحَسَب طقوس ديانتي. وفي كلِّ ذلك، أكونُ عبدًا للظَّرف الَّذي تطلَّبَ منِّي أنْ آخذَ فيه قراري.

٤- حرِّيَّةُ التـَّفكير

ألإنسانُ مُلزَمٌ على التَّفكير. هكذا وُجدَ، وهكذا هوَ. والأمورُ الَّتي يعمَلُ عليها التَّفكيرُ

مَفروضةٌ عليه. فقد يرى أمرًا يَرعى انتباهَه فيأخذُ بتحليله. وقد يسألُه أحدُهم عن أمرٍ ما، فيعملَ على إجابته. وقد يؤلِمُه ضرسُه فيلعَنُ ساعتَه. وعلى نحوٍ عامّ، يفكِّرُ الإنسانُ بالَّذي يراه أو يسمعُه أو يشعرُ به. فهل يكونُ حرًّا أنْ يرى ما يرى، أو يسمعُ ما يسمع، أو يشعرُ ما يشعرُ به؟

يقولون، نفكِّرُ بِما علينا فعلُه من دون أنْ يكونَ هناك من سببٍ نرتبطُ به. أقولُ إنَّ هذا خطأ. عندما نفكِّرُ بِما علينا فعلُه، نكونُ في حاجة نفسيَّة أو بيولوجيَّة لتغيير حالة نفسيَّة طالَ عليها الوقتُ، أو لأيِّ سببٍ شبيهٍ آخَرَ.

يقولون، نختارُ من تلقاء أنفسنا موضوعًا نفكِّرُ فيه من دون أنْ يكونَ هناك من سبب يَفرَضُه علينا. أقولُ إنَّ هذا خطأ، لأنَّ الحرَّ لا يختار. والموضوعُ الَّذي نختارُه يكونُ قد طرقَ فكرَنا سابقًا، وأثارَ عندنا تساؤُلاتٍ، وشغلَ بالَنا. فنعاودُ اجترارَه علَّنا نصلُ فيه إلى نهايةٍ تُريحُ أعصابَنا. هذا الموضوعُ قد ولَّدَ حاجةً نفسيَّةً عندنا، وهذه الحاجةُ هي الَّتي دفعَتْنا لاختياره بالذَّات.

حتَّى طريقةُ تفكيرِ الإنسان، وعمقُ هذا التَّفكير ونتيجته، هي مقيَّدةٌ بشخصه البيولوجيِّ الَّذي طُبعَ عليه، ومقيَّدةٌ بالمعرفة والثَّقافة الَّتي يمتلكُها والَّتي أُلزِمَ على اختزانها.

وقد تأتيه الأفكارُ من ذاكرته الغريزيَّة من دون درايةٍ منه. فهل هذا ما كانَ يريدُه؟

أفكارُ الإنسان له. ولكن ليس هو مَن يُهندسُها.

ألقرارُ يصدرُ عنه. ولكن ليس هو مَن يأخذُه.

٥- حرِّيَّةُ الرَّأي والتَّعبير

ألتَّعبيرُ وسيلةٌ وفحوى. فقد أُعبِّرُ بالكلمة عندما تُجبِرُني ظروفٌ على ذلك، وقد أُعبِّرُ بالإشارة والإماءة عندما تُلزِمُني ظروفٌ أخرى على ذلك.

ألفحوى والكلمة تفرضُهما الظُّروف أيضًا. فالإنسانُ يتكلَّمُ بحَسَب حاجته. إبداءُ الرَّأي تعبيرٌ، والإنسانُ ليس حرًّا في تعبيره وإبداء رأيه. فالرَّأيُ الَّذي أُبديه يُلزمُني به موضوعُ السَّاعة الَّتي أعيش. فإنْ قامَ خطيبٌ بتفجير قنبلة سياسيَّة ألهبَتِ الكثيرين بنيرانِها، كانَ عليَّ أنْ أُبديَ رأيي بها. فإنْ كنتُ من مُحِبِّيه ومُحِبِّي سياسته أقفُ برأيي إلى جانبه، وإنْ كنتُ من معارضيه أُبدي رأيًا مخالفًا لنَهجه. وفي الحالتَين تكونُ ظروفي السَّابقة هي الَّتي ستفرضُ عليَّ رأيي.

فحوى التَّعبير وجهٌ آخرُ للخِيار، والخِيارُ عبوديَّة.

وأمَّا حرِّيَّةُ الرَّأي الَّتي يتكلَّمون عليها، ويطالبون بها، فما هي سوى حرِّيَّةٍ مقيَّدةٍ بالقانون المدنيّ، يسعون بها لِتوسيع مدى تلك الحرِّيَّة ليس أكثر.

٦- حرِّيَّةُ التَّحرُّرِ والانعتاق

يحاولُ الإنسانُ التَّحرُّرَ من الكثير من الأمور: التَّحرُّر من تقاليده المَوروثة، من بيئته، من طبائعه، من ظروفه القائمة، من...

التَّحرُّرُ هو المظهرُ الأخيرُ لحرِّيَّةٍ مفقودة. فذكرُ التَّحرُّر يدلُّ أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخرَ إلى أنَّ الإنسانَ مُقَيَّدٌ؛ ولذا، فهو يعملُ على التَّحرُّر.

حتَّى التَّحرُّرَ بحدِّ ذاته مَفروضٌ على الإنسان فرضًا. فالإنسانُ يتوقُ إلى الحرِّيَّة بخاصَّةٍ عندما يُعامَلُ كالعبد، أو عندما يرى غيرَه ينعمُ بنوعٍ من حرِّيَّة مقيَّدة هو بعيدٌ عنها. وقِسْ على ذلك باقي الحرِّيَّات المُفتَرضَة، بل الحرِّيَّات المزيَّفة.

وقد يقولُ أحدُهم، مثلاً، أنا حرٌّ في أن أتعرَّى في بيتي.

لا، لن يتعرَّى من دون سبب، من دون حاجة. هو يتعرَّى عندما يدخلُ الحمَّامَ ليغتسلَ، وقد يتعرَّى للمُجامعة، أو عندما تشتدُّ الحرارةُ، أو لأيِّ سببٍ آخَرَ شبيه. وأمَّا أنْ يتعــرَّى من دون سببٍ، فمن الصَّعب علينا أنْ نُصــدِّقَ ذلك، إلاَّ إذا كــانَ

مُختلاً عقليًّا. حتَّى المُختلُّ لا يملكُ هذه الحرِّيَّةَ، مع أنَّه أقربُ إليها من العاقِل، فهو يتبعُ غريزتَه الَّتي تُملي عليه تحرُّكاته.

٧- ألعبوديَّة

ألعبوديَّةُ هي التَّسَيُّر، هي عكسُ الحرِّيَّة.

عند الحاجة هناك عبوديَّة، عند الارتباط هناك عبوديَّة، عند أيِّ ظرفٍ مؤثِّرٍ هناك عبوديَّة.

إنْ لم نكُنْ أحرارًا، فماذا يُمكنُ أن نكون؟

نحنُ العبوديَّة. نحنُ عبيدُ كلِّ ظرف، كلِّ حاجة، كلِّ ارتباط، كلِّ تأثير، كلِّ تأثُّر.

ألحبُّ ارتباطٌ بين الإنسان والإنسان الحبيب. الحبُّ عبوديَّة، ولكن...

نعم، لكنْ هناك التَّكاملُ الصَّحيحُ الَّذي قد يوصلُ الإنسانَ إلى ما يصبو إليه، حتَّى ولو إلى وقتٍ قصير (أنظُرْ لاحقًا التَّكاملُ الصَّحيح).

٨- كيف يقتربُ الإنسانُ من الحرِّيَّة

كلُّ فعلٍ أو ردِّ فعلٍ يُصدرُه الإنسانُ تتحكَّمُ به الظُّروفُ؛ وعليه، فكلُّ تأثيرٍ يُصدرُه الإنسانُ، أو كلُّ تأثُّرٍ يُصيبُه، يدلُّ إلى مظهرٍ من مظاهر العبوديَّة.

والإنسانُ، في وَعيه، يُصدرُ العديدَ من التَّأثيرات، ويتلقَّى الكثيرَ من التَّأثُّرات. وأمَّا الإنسانُ النَّائمُ، أو المُستَرخي، أو المُبَنَّجُ، فتأثيراتُه وتأثُّراتُه لا تُذكَرُ، فهو أقربُ إلى الحرِّيَّات.

ألحُرُّ هو الَّذي لا يُعيرُ انتباهًا كلَّ ما يأتيه من تأثيراتٍ سَمْعيَّةٍ أو بَصَريَّة، جسديَّةٍ أو نفسيَّة.

ألحُرُّ هو الَّذي يحاولُ ألاَّ يتأثَّر. التَّأثيراتُ عبوديَّة.
بالنِّسبة إلى الحُرِّ، التَّأثيراتُ والتَّأثُّرات كأنَّها لم تَكُنْ.
ألحُرُّ لا يتأثَّرُ، وإلاَّ أصبحَ عبدًا للتَّأثيرات. والحُرُّ يؤثِّر، وإنْ أثَّرَ فبالحرِّيَّة فقط.
الحُرُّ يُعطي الحرِّيَّة.
ألنَّاسكُ أقربُ إلى الحرِّيَّة من الإنسان العاديّ. علائقُ كثيرةٌ تُقيِّدُ الإنسانَ العاديَّ ولا تُقيِّدُه.
"عينٌ لا ترى، أذُنٌ لا تسمع، قلبٌ لا يوجَع، فكرٌ لا يقلق".

٩- حرِّيَّاتُ الإنسان المُمكِنَة

هل يعني ما سبَقَ أنْ لا حرِّيَّةَ عند الإنسان؟
لا، فالإنسانُ يتمتَّعُ بالعديد من الحرِّيَّات النِّسبيَّة الَّتي أصِفُها بالتَّافهة:
فهو حُرٌّ، مثلاً، بالنِّسبة إلى معظم النَّاس الأحياء على وَجه الأرض، والَّذين لا علاقةَ لهم معه. وهو حُرٌّ بالنِّسبة إلى الكثير من التَّقاليد والمذاهب الَّتي تغزو البلدانَ البعيدةَ والَّتي لم يتعرَّفْ هو عليها. وهو حُرٌّ بالنِّسبة إلى بعض العوامل الطَّبيعية والمجاهل الكَوْنيَّة الَّتي لم يتأثَّر بها. وهو حُرٌّ بالنِّسبة إلى الكثير من المُدُن والمَعالم السِّياحيَّة والمعماريَّة والحضاريَّة الأخرى الَّتي لم تسنحْ له الفرصة لزيارتها. وبالمختصر، هو حُرٌّ (أي لا ارتباطَ له) بالنِّسبة إلى كلِّ الأمور الَّتي لم يتواجَه معها.
كما أنَّه قد يتمتَّعُ ببعض الحرِّيَّات المقيَّدة الأخرى، إذا ساعدَته الظُّروفُ على التَّحرُّر من بعض قيوده. لكنَّه لا يستطيعُ، ولن يستطيعَ التَّحرُّرَ من الكثير من التَّأثيرات للوصول إلى بعض الحرِّيَّات الَّتي نصفُها بالهامَّة. فقد يتحرَّرُ من بعض العلائق عندما تزولُ أسبابُها أو تتبدَّل. فإنْ كان مُرغَمًا على تحمُّل حرارةِ صيفٍ لاهبة، فقد

تلوحُ في الأفُق سحابةٌ تحجُبُ ضوءَ الشَّمس، فتحرِّرُه من ذلك الطَّاغوت، ولو إلى حين، لكنَّه لا يستطيعُ، ولن يستطيعَ التحرُّرَ من جيناته وظروف نشأته وذكريات ماضيه.

١٠- ألحرِّيَّةُ في العبوديَّة أو الحرِّيَّةُ المقيَّدة

حتَّى في العبوديَّة هناك بعضُ فُسحات حرِّيَّة.

ألسَّجينُ مُلزَمٌ على الحركة. ومع أنَّ تحرُّكَه هو مظهرٌ آخرُ لعبوديَّة، فمساحةُ تحرُّكه هي مظهرٌ من مظاهر حرِّيَّة مقيَّدَة في عبوديَّته.

ألإنسانُ بحاجة إلى إنسانٍ من الجنس الآخر. والحاجةُ هذه مظهرٌ من مظاهر العبوديَّة. ولكنْ، أعدادُ الجنس الآخر هي الأخرى مساحةٌ لحرِّيَّة مقيَّدة.

١١- ألتَّكاملُ الصَّحيحُ أو الارتباطُ المتكامِل

ألتَّكاملُ أو الارتباطُ المتكامِلُ هو الارتباطُ الَّذي يَنتجُ منه ذوبانُ المَربوط والمَربوط به، في وَحدةٍ تنتفي معها بعضُ الحاجات والتَّأثيرات الخارجيَّة.

ألارتباطُ المتكامِلُ هو أقربُ إلى الحرِّيَّة الفرضيَّة من الأشياء الَّتي ارتبطَت عندما كانت منفصلَة. فكلُّ شيءٍ من الأشياء المرتبطَة سَدَّ حاجتَه بالأشياء الأخرى الَّتي ارتبطَ بها، فانتفَت عنده الحاجة.

ولكنَّ التَّكاملَ يولِّدُ التَّعقيدَ بالكبر والكَثرة. والتَّعقيدُ يتطلَّبُ حاجاتٍ معقَّدةً جديدة، فإنْ لم يكُنِ التَّكاملُ على نحوٍ صحيحٍ بالوَحدة، فقد لا يبقى طويلاً متمتِّعًا بفسحة الحرِّيَّة، وسرعانَ ما تأتيه تأثيراتٌ جديدةٌ تُعيدُه إلى عبوديَّةٍ قد تكونُ أعتى.

والحبُّ عبوديَّةٌ لكلٍّ من الحبيبَين. وإنْ تكاملَ الحبيبان وأصبحا جسمًا واحدًا، تَمتَّعا بحرِّيَّة مضمونة. ولكن، هذا الجسمُ له ظروفُه الخاصَّةُ وحاجاتُه الخاصَّةُ الَّتي تعملُ على تكبيله.

الفصلُ الثّـاني عشر
بعضُ قوى الإنسان النـّفسيَّة
وعلاقتـُها بالحرِّيَّة

١- ألإرادةُ وعلاقتُها بالحرِّيَّة

ألإرادةُ هي أنْ تريدَ وتعملَ لما تريد.

ومَن يريد، يريدُ حاجةً أو طلبًا. الإرادةُ تعكسُ حاجةً، فهي إذًا مظهرٌ من مظاهر العبوديَّة. الحاجةُ تكبِّلُ الإنسان.

ألإرادةُ ليست حرِّيَّة. الإرادةُ عبوديَّة.

ألحُرُّ لا يُريد. الحُرُّ حُرٌّ ولا يُجاهرُ بحرِّيَّته.

٢- ألمسؤوليَّةُ وعلاقتُها بالحرِّيَّة

ألمسؤوليَّةُ هي أنْ تكونَ سببًا لتأثيرٍ ما، أو لعملٍ ما، بإرادةٍ أو من دون إرادة.

وأنْ تكونَ سببًا هو إلزام. المسؤوليَّةُ إلزام. المسؤوليَّةُ عبوديَّة.

إنَّ الذي يضعُ حدًّا لحياته ولعذاباته يكونُ ظاهريًّا مسؤولاً عن فِعلته، لكنَّه لم يكُنْ حرًّا في اختياره، بل كانَ مدفوعًا دفعًا من الظُّروف الَّتي كانَ يعيشُ بثقلها، وإلاَّ لَما فكَّرَ بالانتحار. فهو كانَ عبدًا لها. الظُّروفُ هي المسؤولةُ، وبفِعلتِه تحرَّرَ منها.

أللِّصُّ ليس مسؤولاً عن لصوصيَّته. شخصيَّتُه البيولوجيَّةُ مؤهَّلةٌ لذلك، نشأتُه في بيئة غير سليمة هي الأخرى تُسهمُ في ذلك. حاجاتُه النَّفسيَّةُ والجسديَّة، كذلك، تَفرضُ عليه البحثَ عن الفرص الَّتي تساعدُه على حيازة ما ليس في وسعه حيازته. فهو يتصرَّفُ بمشيئة الظُّروف.

ألنَّاسك، الأبطال، المخترعون، العلماء، الباحثون، كلُّهم غيرُ مسؤولين عن نجاحاتهم أو فشلهم. فهم مَدفوعون دفعًا إلى ما يقومون به.

ولكن، لِمَ هم وليس غيرُهم؟
أيْنِشْتايْن لم يُخلَقْ عبقريًّا. إنَّما ترَعْرَعَ في بلدٍ يُقدِّسُ العلومَ، ويلهَثُ وراءَ كلِّ جديد، وينشرُ المعرفة. جيناتُه ساعدَتْه في صعوده. ظروفُ نشأتِه دفعَتْه إلى البحث والاستكشاف. بينما زُهَيْر، الحمَّالُ المجهولُ الهُوِيَّة، وُلدَ في البؤس والكراهيَّة والآلام، في بلدٍ لا همَّ لحكَّامه سوى تناتُشِ السُّلطة والتَّظاهر بالشَّطَّارة، دونما أيِّ رؤية بعيدة. راحَ الحمَّالُ رخيصًا بدهسةِ سيارة. الظُّروف. الظُّروف.

في الكلِّ خيرٌ وبركة. لكنْ، ما ذنبَ الأمِّيِّ إنْ لم يصلْ إلى ما وصلَ إليه الضَّليعُ بعِلم الإلكترونيَّات؟ وما ذنبُ الجبانِ إنْ لم يَكُنْ صنديدًا جَسورًا، إذا كانتِ الظُّروفُ قد طبعَتْه بعكس ذلك؟ وما ذنبُ الفلاَّح البسيط الَّذي فتحَ عينَيه على حراثة الأرض، إنْ لم يَكُنْ موسيقارًا، ولو مَغمورًا؟

كلُّنا من طينةٍ واحدة. كلُّنا أهلٌ لقيادة دولة، للتّفرُّد، للنُّجوميَّة، ولكلِّ ما هو شهيرٌ أو مَغمور. ولكنْ، لم تأتِ الكلَّ الظُّروفُ المؤاتيةُ لذلك، ظروفٌ توصلُهم إلى القيادة والإبداع والشُّهرة.

٣- ألرَّاحةُ وعلاقتُها بالحرِّيَّة

ألرَّاحةُ هي عدمُ تأثُّرٍ وبُعدٌ عن التَّأثير.
في الحرِّيَّة الحقيقيَّة لا تأثُّرٌ ولا تأثير.
ألرَّاحةُ هي إحدى مظاهر الحرِّيَّة. في الحرِّيَّة المطلَقَة تكونُ الرَّاحةُ الحقيقيَّة.
ألحرِّيَّةُ مريحة.

ألإنسانُ المُرتاحُ حرٌّ نسبيًّا. ولكنْ، إلى متى؟ النَّائمُ والغافلُ هما أكثرُ راحةً وأكثرُ حرِّيَّةً من الواعي العاقل.

٤- ألسَّعادةُ وعلاقتُها بالحرِّيَّة

ألسَّعادةُ هي انتفاءُ الحاجة، والسَّعادةُ مظهرٌ من مظاهر الحرِّيَّة.
ألسَّعادةُ مُريحة، والرَّاحةُ سعادة.
ألسَّعادةُ حرِّيَّة.
ولكنْ، أيُّ سعادةٍ وأيُّ حرِّيَّة؟
ألسَّعادةُ تُنسَبُ إلى الحرِّيَّة القائمة. فهناك السَّعادةُ النِّسبيَّة، والسَّعادةُ المُطلَقَةُ الحقيقيَّة.
والسَّعادةُ المُطلَقَةُ بعيدةُ المَنال لأنَّ الحرِّيَّةَ المطلَقَةَ غيرُ موجودة.
ألسَّعادةُ المُطلَقَةُ عندَ الكمال المُطلَق.
ألسَّعادةُ النِّسبيَّةُ لا تَدوم؛ فالعالمُ قائمٌ على التَّغيير، وأيُّ تغييرٍ في ظرفٍ يكونُ سببًا لهَدم السَّعادة. الإنسانُ مسكين!
والسَّعادةُ المتعلِّقةُ بحرِّيَّة مقيَّدَة لا تكونُ بالمرتبة عينِها عند الكلّ. فهي تتعلَّقُ بمدى تلك الحرِّيَّة. وكلَّما كانَ هذا المدى أكبر، كانَتِ السَّعادةُ أكبر.

٥- ألشُّعورُ بالظَّفَر والحرِّيَّة

إنتفاءُ الحاجة بزوال ظروفها الآنيَّة سعادةٌ شبهُ حقيقيَّة، وهي الَّتي تؤدِّي إلى حرِّيَّة مرحليَّة.
وأمَّا انتفاءُ الحاجة بالظَّفَر بها، والحصولِ عليها، فهي سعادةٌ ظاهريَّةٌ وعبوديَّةٌ واقعيَّة، فالظَّفَرُ بالحاجة ارتباطٌ، والارتباطُ عبوديَّةٌ إنْ لم يكنْ ارتباطًا متكاملاً.

٦- ألقُدرةُ والحرِّيَّة

ألقُدرةُ هي أن تتفاعلَ (تأثيرٌ متبادَل) مع أمرٍ ما، أيْ أنْ تكونَ متمتِّعًا بتأثيراتٍ قادرةٍ على الوصول إلى قلب الأمر المَعنيّ.

ألقدرةُ تأثير. وكلُّ تأثير، غيرُ تأثير الحرِّيَّة، هو نقيضُ الحرِّيَّة. القدرةُ نقيضُ الحرِّيَّة.

إنْ كنتَ حرًّا لا تتعاملْ مع الظُّروف، ولا تَكُنْ ظرفًا. ألتَّردُّدُ والقلقُ هما من مظاهر العبوديَّة. الحرُّ لا يتردَّدُ ولا يقلق. ألتَّردُّدُ والقلقُ يتعلَّقان بالقدرة.

٧- ألتـَّعقيدُ والحرِّيَّة

كثرةُ التَّعقيد تتطلَّبُ حاجاتٍ أكثرَ، وحاجاتٍ أكثرَ تعقيدًا. وكلَّما كانَ الشَّيءُ أكثرَ تعقيدًا ابتعدَ أكثرَ عن الحرِّيَّة.

ألبسيطُ يتطلَّبُ حاجاتٍ أقلَّ وأبسطَ، لذا فهوَ أقربُ إلى الحرِّيَّة من الأكثرِ تعقيدًا.

ألحيوانُ لا يفكِّر. حرِّيَّتُه أكبرُ من حرِّيَّة الإنسان. والحجرُ لديه الحرِّيَّةُ الأكبر.

٨- ألتـَّوقُ إلى الحرِّيَّة

إنْ لم يكُنِ الإنسانُ حرًّا، فهو يتوقُ إلى الحرِّيَّة، لأنَّه في الحرِّيَّة يأملُ أنْ يجدَ الشُّعورَ بالرَّاحة والأمان والسَّعادة.

ولكنْ، كيف يتوق؟ وكيف يعلمُ أنَّه سيجدُ الرَّاحةَ والسَّعادةَ في الحرِّيَّة؟

في البرهات القصيرة الَّتي يخالُ الإنسانُ نفسَه أنَّه بلغَ حرِّيَّةً مَنشودةً، يشعرُ بالرَّاحة والأمان والسَّعادة. بعدَها، يفقدُ الحرِّيَّةَ ويفقدُ كلَّ شيءٍ معها. فيحاولُ من جديد أنْ يصلَ إلى ما وصلَ إليه سابقًا، وقد ينجحُ وقد لا ينجح.

ألتَّوقُ إلى الحرِّيَّة هو مظهرٌ من مظاهر العبوديَّة. هو ليس خِيارًا. الإنسانُ مدفوعٌ دفعًا إلى البحث عن الحرِّيَّة. التَّوقُ هو نوعٌ من التَّأثُّر، ولكنْ، من أينَ يأتيه التَّأثيرُ المتعلِّقُ به؟

ألإنسانُ يريدُ الحرِّيَّة. يريدُها بكلِّ شغف. فكأنَّ هناكَ مَن يؤثِّرُ فيه بتلك الحرِّيَّة، يُعطيه الحرِّيَّةَ، وهو يأخذُ منها على قَدْر ما تسمحُ له الظُّروف. ولكنْ، مَن ذا الَّذي يُعطي الحرِّيَّة؟ الحرِّيَّةُ لا تأتي إلاَّ من الحرِّيَّة المُطلَقَة، من الكمال المُطلَق.

٩- ألعِلمُ والحرِّيَّة

ألحُرُّ لا يتغيَّرُ، وإلاَّ فقَدَ حرِّيَّتَه. الحُرُّ لا يتعلَّمُ، وإلاَّ أصبحَ عبدًا لعِلمه.

ورُبَّ قائلٍ: أنا أريدُ أن أتعلَّم. نعم! تَعَلَّمْ. فمَن تعلَّمَ أصبحَ أكثرَ كمالاً وأكثرَ حرِّيَّة. لكنَّ الحُرَّ الحرَّ لا يتعلَّمُ لأنَّه الكمالُ بعَينه.

فاقدُ الحرِّيَّة هو فاقدُ الكمال، يتعلَّمُ ليُصبحَ كاملاً وحرًّا.

ألخُلاصة

لا للحرِّيَّة، نعم للعبوديَّة!

يُخطئُ مَن يظنُّ أنَّه حُرّ.
ألإنسانُ ليس حرًّا. الإنسانُ آلةٌ مُسيَّرةٌ تُسيِّرُها الظُّروفُ، والعلائق، والحاجات، والارتباطاتُ والضَّوابط، الآنيَّةُ منها الَّتي يرزحُ بثقلها، والسَّابقةُ الَّتي طبعَتْه بتأثيراتها، وألزمَته بالخضوع لإرادتها في كلِّ قرارٍ أخذَه، أو قد يأخذُه.
ألإنسانُ لا يستطيعُ التَّحرُّرَ من ارتباطاته، بل يبقى رهينةً لِما يتأثَّرُ به، ويتحرَّكُ بحَسَب مشيئته من دون وَعي.
وقد يصلُ الإنسانُ إلى نوعٍ من الحرِّيَّات النِّسبيَّة المقيَّدة، ولوقتٍ قصير، عندما تزولُ بعضُ الظُّروف الضَّاغطة؛ ولكنْ، سرعانَ ما يواجهُ ظروفًا جديدةً تُلزمُه الخضوعَ لها. فكلُّ شيءٍ في تغيُّرٍ مستمرّ، ولا شيءَ يبقى على حاله، وهذه هي سُنَّةُ الوجود. وإنْ وصلَ الفردُ إلى بعض الحرِّيَّات النِّسبيَّة، فذلك لن يكونَ بمِلء إرادته وحرِّيَّته، بل بحَسَب مُستَلزمات الظُّروف.
ألحرِّيَّةُ كلمةٌ جوفاءُ لا تدلُّ إلى واقعٍ حقيقيّ؛ وإنَّما وُجدَت في خيال الإنسان كمُنى المَنال وكنقيضٍ للواقع الأليم الَّذي يعيش، ألا وهو واقعُ العبوديَّة.
ألإختراعاتُ والابتداعات، والابتكاراتُ والاكتشافات، ليسَت من مظاهر الحرِّيَّة، بل من مظاهر العبوديَّة. فهي تمَّتْ بسبب العبوديَّة، وعلى كتف العبوديَّة. هي مظاهرُ حاجات، حاجاتِ الإنسان لتخفيف وزر النِّير المتسلِّط على رقبته.

لو كانَ الإنسانُ حرًّا، لما أحرزَ ما أحرزَه من تقدُّمٍ ورقيٍّ وحضارة. فهذه قامَت على العبوديَّة، وللتَّحرُّر من العبوديَّة.

لو كانَ الإنسانُ حرًّا، لَتَرَبَّعَ في أعلى سُلَّم الرّقِيّ.

أنا لا أريدُ الحريَّة. فالحريَّةُ مُمِلَّة. لا تقدُّمٌ فيها، ولا حركة، ولا حياة.

أنا أريدُ العبوديَّةَ لأنِّي، كإنسان، وُلدْتُ فيها، وتعوَّدْتُ عليها، وأصبَحْتُ جُزءًا منها.

أنا أريد العبوديَّةَ، ففي العبوديَّة تنمو العظائمُ، وتحلو الحياةُ وتتنوَّع. لولا العبوديَّةُ لَما كانَتْ أهرامُ فراعنة مصر، وأزتيك المكسيك. لولا العبوديَّةُ لَما كانَتْ هياكلُ اليونان والرُّومان، ولا معابدُ الهند والسِّند. لولا العبوديَّةُ لَما كانَتْ الهياكلُ العظيمةُ والمعالمُ الحضاريَّةُ الهائلةُ موجودةً.

في العبوديَّة حاجات. والحاجاتُ أمُّ الاختراعات.

يقولون، ولكنْ، في العبوديَّة قلَّةٌ من البشر محظوظةٌ تنعمُ ببعض السَّعادة والرَّفاهيَّة، بينما الكثيرُ منهم يكدُّون ويتعبون بحثًا عن لقمة العيش، وينامُون في البؤس والألم والحرمان.

أقول، مَن قالَ إنَّ الحريَّةَ لا تُصيبُ إلاَّ أصحابَ الرَّفاهيَّة ورؤوس الأموال الكبيرة. مَن قالَ إنَّ السَّعادةَ لا تُعَشْعِشُ إلاَّ عند العظماء والمشاهير؟ مَن قالَ إنَّ الحريَّةَ لا تليقُ إلاَّ بمَن ذاعَ صيتُه، أو بمَن سلَّطَ سيفَه على رقاب البشر؟ مَن قالَ إنَّ الرّغدَةَ لا تليقُ إلاَّ بأولئك الَّذين أنعمَتِ الظُّروفُ عليهم، ونسَوا أنَّ هناك مَن أظلمَتِ الدُّنيا في وجوههم؟ السَّعادةُ والحريَّةُ لا مكانَ محدَّدًا لهما، ولا زمان. السَّعادةُ في النَّفس الحُرَّة، في النَّفس الأبيَّة.

ألشَّعبُ الَّذي ينالُ استقلالَه (يقولون حريَّتَه) لنْ يُصبحَ حُرًّا. كلُّ ما يبلغُه هو توسيعُ رُقعة تحرُّكه، توسيعُ مدى حريِّته المقيَّدَة. ويا لَيْت.

ألشَّعبُ الحُرُّ هو الشَّعبُ الَّذي لا يجوع، ولا يعطش، ولا يمرض، ولا يموت.

ألشَّعبُ الحُرُّ هو الشَّعبُ الَّذي لا يتذمَّر، ولا يثورُ ولا يحتاج.
ألشَّعبُ الحُرُّ هو الشَّعبُ الَّذي لا يخافُ الأعاصير، وثورات البراكين، ووَيْلات الزَّلازل.
ألشَّعبُ الحُرُّ لا رئيسَ له ولا مَرؤوس، لا قائدَ ولا مُنقادًا له.
ألشَّعبُ الحُرُّ هو حرٌّ في كلِّ شيء. يتشبَّعُ من الحريَّة المُطلَقَة، ومن السَّعادة المُطلَقَة والرَّاحة الحقيقيَّة.
فأيْن هو هذا الشَّعب؟

ألخاتمة

أللّه موجودٌ حتـّى للّذين ينفون وجودَه!

نتعرَّفُ إلى الوجود من خلال تأثيره الحقيقيّ.
فالزَّيتُ يرشحُ زيتًا وليس ماءً؛ والحارُّ يُعطي سخونةً وليس لبنًا؛ والشَّمسُ تُعطي دفئًا ونورًا وليس حبرًا وورقًا.
والتَّأثيرُ هو تأثيرٌ وتأثُّر. والتأثُّر يدلُّ إلى المؤثِّر. إنْ تأثَّرْنا بالزَّيت فلأنَّ هناك زيتًا، وإنْ تأثَّرْنا بالضَّوء فلأنَّ هناك سراجًا مُنيرًا. وإنْ تأثَّرْنا بالشَّرِّ فلأنَّ هناك شرِّيرًا. وإنْ تأثَّرْنا بدفء الحبِّ فلأنَّ هناك محبَّة.
والإنسانُ يتوقُ إلى الكمال والحرِّيَّة. فهو ينهلُ كمالاً وحرِّيَّة. هناك مَن يؤثِّرُ فيه بالكمال والحرِّيَّة ويعطيه من كماله وحرِّيَّته. الكمالُ كالنُّور لا يأتي من العَدَم.
والحرِّيَّةُ كالعِطرِ لا تأتي من لا شيء. فكما أنَّ النُّورَ يأتي من الشَّمس، والعِطرَ من الورود، هكذا الكمالُ يأتي من الكمال المُطلَق، والحرِّيَّةُ تأتي من الحرِّيَّة الحقيقيَّة، من الله.
أللهُ كمالٌ مُطلَق. لا يتأثَّرُ ولا يتغيَّرُ (لا يُسمَعُ ولا يُرى ولا يُشعَر به)، لا أجزاء فيه ولا صفات له (لا لون ولا طعم ولا شكل ولا كِبر ولا صِغَر...). الكمالُ المُطلَقُ يؤثِّرُ فقط، وإنْ أثَّرَ، فلكَيْ يُعطي من كماله، وليس ممَّا هو دون الكَمال. واللهُ لا مكانَ لوجوده ولا زمان، فالمكانُ والزَّمانُ هما من خصائص المادَّة، واللهُ الكمالُ فوقَ المادَّة.

أللهُ موجودٌ، ليس لأنَّه خلقَ العالَم، فالعالَمُ أزليٌّ وما من خالقٍ له. العالمُ دون الكمال. ولو كانَ مِن خَلْق الله لكانَ كالله كمالاً.

أللهُ موجودٌ، ليس لأنَّه خلقَ البشرَ والحجر. فالبشرُ والحجرُ دونَ الكمال.

أللهُ موجودٌ لأنَّه يؤثِّرُ على البشر بكماله. الكمالُ يأتي البشرَ من الكمال المُطلَق، من الله. والإنسانُ يأخذُ من هذا الكمال ليرتقيَ نحو الكمال المُطلَق. وعندما يرتقي نحو الكمال يكسبُ السَّعادةَ والحرِّيَّةَ والرَّاحة.

واللهُ حرِّيَّةٌ مُطلقَة، ولا يُمكنُ أنْ يُعطيَ إلاَّ حرِّيَّة. اللهُ لا يسنُّ قوانينَ. اللهُ لا يضعُ ضوابطَ، اللهُ لا يصوغُ قواعِدَ. اللهُ لا يضعُ ما هو عكسُ الحرِّيَّة، لا يفرضُ ما يُكبِّلُ به الإنسان. اللهُ الحرِّيَّةُ لا يؤثِّرُ إلاَّ بالحرِّيَّة والكمال والسَّعادة.

ولكنْ، هذا اللهُ أيْن هوَ؟ وما سرُّه؟ وكيف يتعاملُ مع البشر، مع الإنسان والعالَم؟

إنتظرْ، عزيزي القارئ، صدورَ الجزء الرَّابع من مجموعة "نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة"، فتتعرَّف إلى كلِّ هذه الأسرار.

ألمحتويات

ألمدخَل..... ٧
ألمقدِّمة..... ٩
البابُ الأوَّل: في الوجود..... ١١
الفصل الأوَّل: في المَوجودات..... ١٥
الفصل الثَّاني: في التَّأثير والتَّأثُّر..... ٢٩
الفصل الثَّالث: في الشُّروط والظُّروف..... ٣٩
الفصل الرَّابع: أنواع التَّأثيرات..... ٤٩
الفصل الخامس: الأثَر والذَّاكرة والتَّذكُّر..... ٥٩
البابُ الثَّاني: في الإنسان..... ٧٣
الفصل السَّادس: الإنسانُ المُفَكِّرُ والواعي..... ٧٧
الفصل السَّابع: الغريزةُ عند الإنسان..... ٨٧
الفصل الثَّامن: بعضُ أنشِطَة العقل والغريزة..... ٩٣
البابُ الثَّالث: مُسَيَّرون أم مُخَيَّرون؟..... ٩٩
الفصل التَّاسع: في الحرِّيَّة..... ١٠٣
الفصل العاشر: الإنسان، أيُّ إنسان؟..... ١١٥
الفصل الحادي عشر: حرِّيَّةُ الإنسان..... ١٢٧
الفصل الثَّاني عشر: بعضُ قوى الإنسان النَّفسيَّة، وعلاقتُها بالحرِّيَّة..... ١٤١
الخلاصة..... ١٤٩
الخاتمة..... ١٥٣

Dr. Fares Eid

Mukhayyarun
am
Musayyarun
aw
Mafhumul-Hurriyya

Maison Naaman pour la Culture

Mukhayyarun am Musayyarun
aw Mafhumul-Hurriyya min khilali Nazariyyatit-Ta'thirin-Nisbiyya
مُسَيَّرون أم مُخَيَّرون
أو مفهوم الحرِّيَّة من خلال نظريَّة التـأثير النـِّسبيَّة

Septembre 2011
ألحقوقُ مَحفوظة © ***Tous droits réservés*** **– All rights reserved –** ***Todos los derechos reservados***
Maison Naaman pour la Culture & Naji Naaman's Foundation for Gratis Culture *FGC*